صبرائيل

اسم الكتاب: صبر ائيل
اسم الكاتبة: زاهية مصطفى
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: مروة صلاح
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – 2020 م
رقم الإيداع: 2020 / 19466
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6852 – 04 – 4

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

صبرائيل

(الملاك الذي أغوته حياة البشر)

رواية

زاهية مصطفى

للنشر والتوزيع
Arabic Library

الحقد، كان خطيئة إبليس، ذلك الشعور الذي يشبه غليان القيح في الجسد، أسقطه من النعيم فأصبح نارا تأكلها نار، لم تكن مجرد غيرة، بل حقدًا على آدم، لأن الله فضله عليه وأمره بالسجود له، عندما رأى الله أن إبليس اغتر بنفسه أمره بالسجود لمخلوق أدنى منه أصلا ولكنه صنيعة يده.

أما "الغيرة"، فهي التعلق الشديد بالمحبوب وخوف المحب مشاركة حبه، وذلك ما شعرت به الملائكة في الموقف ذاته.

فقالوا:

"أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟" فقال الله: "إني أعلم ما لا تعلمون"، فأطاعوا الأمر حبا لله عالم الغيب.

وبين الحقد والغيرة شر كبير وحب كثير.

أتمنيت يوما أن تكون ملاكا لا يخطئ؟ أم أنك تفضل كونك بشري يخطئ ويصيب ويحمل ما يميز البشر من مشاعر وصفات و.. معاناة؟

قبل أن تجيب، دعني أروي لك قصة قد لا تصدقها، ولكنها حدثت بالفعل، وكنت –أنا– جزءًا منها.. أنا أدعى "ضيّ"

في المستشفى، وعلى سرير في الرعاية المركزة، يستلقي الرجل الوحيد الذي أحببت، الرجل الذي أحببت الله لأجله وعلمت أن الله أيضا يحبني لأجله.. ممسكة يديه في حنو وابتسامة تختلط فيها كل المشاعر في آن واحد.. بصعوبة رجل في الثمانين من عمره، يحاول أن يتحدث قائلا "أرسلت إليك لأني أريد أن أحكي لك قصتي على الأرض، الأرض التي تخليت عن السماء لأجلها.. والآن سأخالف شرطًا من شروط نزولي إليها، ولتعلمي يا صغيرتي أني نادم على أني لم أخطئ وأكمل معك حياتي الدنيوية، وكما كان لآدم فاكهة محرمة في الجنة كنتِ أنت فاكهتي المحرمة في الأرض."

أستمع إليه في شوق كطفلة تستمع من أبيها قصة ما قبل النوم.

*****

على حافة صغيرة في السماء السابعة، يجلس صبرائيل، ينظر إلى الأرض، يفكر في البشر.

صبرائيل، ملاك موكل بتوزيع الأرزاق، يهبط من السماء صبيحة كل يوم أرضي، يوزع أرزاق العباد، يمشي بينهم كسحابة بيضاء على الأرض، ينظر للبشر متعجبا أمرهم، تدور بخلده أسئلة كثيرة.

لماذا فضلهم الله علينا ويعتني بهم؟ ولماذا أنا أيضا دائم التفكير فيهم وأهتم لأمرهم؟ يفكر ما معنى المشاعر البشرية وكيف يشعرون؟ وبماذا يفكرون؟

ينظر إلى الأطفال ولعبهم وضحكاتهم، للنساء المتشحات بالسواد، والشيوخ الذين تعتلي وجوههم تجاعيد تدل على مرور الدهر كقطار يقتص ملامحهم شيئا فشيئا في كل محطة عمرية مرت، فخبرة الحياة إما منحتهم الحكمة أو البؤس وعدم الرضا.

وفي نهاية كل يوم يصعد إلى السماء بعد تأدية عباداته منزويا في ركنه ينظر إلى الأرض كروتين يومي حتى أصبح شغله الشاغل هو الجنس البشري.

ليس متمردا، إنما كل الملائكة تطيع الأمر ولا تفكر ولا تسأل، ولكن صبرائيل كالملائكة التي سألت الله لِمَ خلق آدم واهتم لأمره للدرجة التي أمرهم فيها بالسجود له! هو أيضا بجانب الطاعة يظل يفكر لِمَ خلق الله البشر وأورثهم الأرض؟ ولِمَ فضّلهم على كل الأجناس؟

في الحقيقة على عكس كل الملائكة، كان صبرائيل معجبًا بالبشر وبحياتهم.

في صباح يوم مشرق، ينزل صبرائيل إلى الأرض، لتوزيع الأرزاق، وبينما يسير بين البشر في السوق الذي يشبه بيت نمل، يرى فتىً أسمر مراهقًا، يشد يد أمه بقوة، يريد أخذ ما بيديها عنوة، بينما هي تصرخ ألا يفعل، فما بيدها هي نقود لأكل إخوته الذين لم تشقّ بطونهم كسرة خبز من الأمس بعد أن رزقها الله.. يعنفها محاولا لكمها، إلى أن يتدخلوا المارة في محاولة إبعاده وثم ضربه، تخاف الأم عليه فتتوسل لهم أن يتركوه.

يقف صبرائيل أمام ذلك المشهد مستغربا رد فعل الأم التي أحنى عليها الدهر فأصبحت ككومة عظم متراصٍّ أفقيا في لباس أسود فضفاض.. يقوم العاق بضربها، وعندما يحاول المارة ضربه، فلا تقبل.. يظل يفكر في ذلك المشهد محاولا فهم تلك المشاعر المتضاربة، الخوف منه والخوف عليه.. ولكن في البداية يفكر.. كيف شعور الخوف..؟

يصعد إلى السماء مشتتا، يجلس في ركنه دون مشاركة أحد حتى يأتيه صديقه روفائيل قائلا:

-ألا تجد شيئا آخر تفعله سوى أن تجلس هنا تراقب الأرض؟

رد صبرائيل بملامح يملؤها الجمود:

-يستهويني ما أراه على الأرض بين البشر، لا أعرف لمَ أنا دائم التفكير في أفعالهم، أقل شيء يصدر منهم أحاول فهمه، اليوم مثلا حدث شيء في السوق، فتى ضرب أمه لأخذ النقود التي بيدها وعندما حاول المارة تخليصها وضرب ن لم تقبل وتوسلت إليهم ألا يفعلوا، وبعد أن تركوه قامت بإعطائه النقود ورحل فظلت تبكي..

لا أستطيع فهم تلك المشاعر المتضاربة وأن تشعر بمشاعر كثيرة في آن واحد. بل لا أستطيع فهم المشاعر عامة.

ينظر إلى روفائيل متسائلا:

-لمَ نحن لا نشعر؟ ولم وجوهنا جامدة كجبل من جليد لا يصدر عنها أي تعبير؟ لا نبتسم ولا نحزن.. أنا أريد أن أعرف ما الحزن وما السعادة وما البكاء وما الضحك؟ كل تلك المشاعر أعرفها اسمًا وليس شعورًا.. هم يشعرون، يصيبون ويخطئون، والله يغفر لهم ويحبهم كثيرا، حتى إنه يدبر لهم أمورهم ويخاف عليهم!

رد روفائيل معترضا:

-هو أيضا يحبنا

-أعلم.. ولكننا خلقنا للطاعة وأيضا لخدمة البشر.

-لا تقل هذا!

-ألا تفكر أنت أيضا في هذا؟

-لا، لا أفكر.. هذا اعتراض، وأنا لا يهمني أمر البشر ولا أرى كل هذا الذي تراه فيهم.

-حاشا أن أعترض.. أنا فقط أفكر.. الله الآن يعلم ما أفكر فيه.

يقاطعه روفائيل الذي لا يجد إجابات عن أسئلته التي لا تخطر على بال باقي الملائكة ولا يهمهم الأمر:

-كنت أود تكملة الحديث ولكني أتيت لأقول لك أن جميع الملائكة يتساءلون عنك وعن جلوسك هنا دائما وحيدًا تنظر إلى الأرض، حتى إن رئيس الملائكة يتساءل عنك.

-أخبرهم أني أؤدي جميع عباداتي وعملي أيضا وآتي هنا لأفكر فقط.

-حسنا يا صديقي.

يذهب روفائيل تاركا صبرائيل يفكر ناظرا للأرض محاولا فهم ما حدث في السوق.

*****

يظل صبرائيل على تلك الحال حتى تعرف كل الملائكة بأمره، ينزوي بعيدا عنهم، حتى طلب رئيس الملائكة أن يتحدث إليه.. فذهب صبرائيل لمقابلته ودار بينهم حديث كالآتي:

-ماذا يحدث لك مؤخرا؟

- ما يحدث أني أفكر.

- في ماذا؟

- في بني آدم.

- ماذا فيهم بني آدم؟

- أفكر لماذا يحبهم الله أكثر من أي خلق آخر!

- الله يحب كل خلقه وليس بنو آدم فقط.

- أعلم ذلك.. ولكن لمَ يفضلهم عن كل الأجناس؟ حتى علينا ونحن المقربون له؟

- من قال إن الله يفضل البشر علينا؟ الله جعل رضاه عليهم ودخولهم الجنة بأن يؤمنوا به وبملائكته ورسله، ثم أنت قلتها، نحن المقربون.. نحن أقرب إليه من كل الأجناس الأخرى؛ ألا يكفي؟

- نحن خلقنا للطاعة وأيضا لخدمة بني آدم.

– هذا ليس صحيحًا.. الله خلقنا من نور، وجعلنا مقربين له بجواره لا نخطئ، لا نعذب ولا نشتهي شيئا لأن كل شيء نحبه موجود، القرب منه والجنة معه ورؤيته وليس لدينا مطامع.

قاطعه صبرائيل.

– نعم، ولكننا لا نشعر.

– وحبنا لله، أليس شعورًا؟ وغيرتنا عليه عندما خلق آدم وأمرنا بالسجود له، أليس شعورًا؟ وأيضا اهتمامك وفضولك ببني آدم أليس بشعورٍ؟ ثم ذلك ليس خدمة للبشر، الله خلقنا لتنظيم الحياة ونشر مشيئته ليس فقط لبني آدم، ولكن للكون كله. الله قربنا له وجعلنا الأفضل، ولن نخير أن نذهب للجنة أو النار. أما بنو آدم، فهم مساكين، فكثير منهم في النهاية سيدخل النار، أما نحن فمخلدون هنا بجواره، نحن دائما في الجنة.

–الله يحبهم كثيرا، حتى عندما يعصونه يغفر لهم ويتوب عليهم، ثم يعصونه، ثم يغفر لهم، وهكذا.. يحبهم كثيرا، حتى إنه يدبر لهم الأمر.

–يحبهم ولا يغفر لكل من يعصيه، فإن ضمن البشر الغفران الدائم من الله لعاثوا في الأرض فسادا، لذلك منحهم الله الثواب والعقاب. يحبهم لأن الله أعطاهم صفات وشهوات تسيطر على أغلبهم.. كثير منهم ضائع، ويشككون في وجود الله، وبعض منهم يعلم وجوده دون أن يراه، وضعهم في اختبارات صعبة وابتلاءات، فمنهم من يستقيم ومنهم من يضل.. أما نحن، فلا نشكك

لأننا نعلم بوجوده.

-أعطاهم مشاعر كثيرة، أنا أمشي بينهم أرى من يضحك وأحاول أن أفهم كيف يكون شعور الضحك، وأرى من يتألم وأتساءل كيف يكون شعور الألم.. كيف يشعرون بكل تلك المشاعر؟ مثل الحزن الحقد الألم السعادة الحنين الحب.. ليس لدينا كل ذلك!

-لديك، ولكنك لا تشعر حين تفكر في كل ذلك، فأنت تشعر بالغيرة منهم، أو ربما الإعجاب بهم وذلك نفسه شعور.

-ربما، كل يوم بينهم مع مواقف كثيرة أراها، أفكر لمَ يحدث ذلك أو ذلك.. حياتهم مليئة بالمواقف والحياة، أما نحن فحياتنا تسير على وتيرة واحدة وهي الطاعة.. أود لو أني أعيش مثلهم أصيب وأخطئ ويغفر لي.

-وهم أيضا يتمنون لو أنهم ملائكة مثلنا ومقربون إلى الله..

-أعلم ذلك أيضا..

-ثم إن الله خلق الكون كبيرا وواسعا وبه من الأجناس ما لا يعد ولا يحصى، لمَ فكرت أن الله يحب بني آدم فقط ويفضلهم، الله اختارنا مقربين له ثم إنه عز وجل يدبر الأمر لكل الأجناس ويرعاهم.. لمَ تفكر في بني آدم فقط؟

-ربما لأني دائما معهم وبينهم.

-أرجو ألا تصلك كل أفكارك تلك لشيء لا نريده مثلما حدث مع عزازيل.

-لا، عزازيل حقد على آدم ورفض أمر الله بالسجود له، ثم اغتر ووقف بوجهه.. أما أنا فأحب البشر وأحب حياتهم وأحب خلقهم ومميزاتهم وأحب الله حبا جما.

صمت رئيس الملائكة برهة ثم قال:

-سأنظر في أمرك.

-كيف؟ أو ماذا تعني؟

-لا شيء، ولكن الآن عد لعملك ولطاعتك لله وأيضا لا تنزوِ وحيدا فكل الملائكة الآن تتحدث عنك.

-حسنا.

يخرج صبرائيل من لقائه مع رئيس الملائكة محتارا أكثر في أمر البشر وفي الكلمة الأخيرة التي قالها رئيس الملائكة.. سأنظر في أمرك.. بماذا يقصد؟

*****

قبيل الفجر، وقبل أن تلد السماء نهارا جديدا، ينزل صبرائيل إلى الأرض، فيرى كثيرًا من العباد يخرجوا من بيوتهم ذاهبين لعملهم طلبا للرزق، وفي ذلك اليوم رأى رجلا يبدو في الثلاثين من عمره، حنطي اللون، مكفهر الوجه خارجا من بيته يبحث عن رزق لأولاده، ولكن صبرائيل يعلم أن اليوم ليس لذلك الرجل رزق، وسيعود بيته بخفي حنين. يظل يراقب الرجل الفقير طيلة اليوم في سعيه، يفكر ماذا سيفعل إلى أن انتهى اليوم وعاد الرجل إلى بيته فارغ اليدين، وأخبر زوجته أن الله لم يرزقه اليوم، فقالت الزوجة في حنوٍّ: «لا عليك، فلدينا بعض الجبن، سأحضرها للعشاء» فحمد الرجل الله.. على الرغم من الاحتياج إلا أنه حمد الله.. تلك العائلة فقيرة جدا، ومع ذلك، الرجل شكر لله.. ربما لذلك يحبهم الله؟

*****

يصعد صبرائيل إلى السماء فيجد روفائيل أمامه، فيخبره أن رئيس الملائكة يريد مقابلته، يمشي صبرائيل متجها للقاء رئيس الملائكة.

فيجده في انتظاره وما أن يراه يقول:

-ربما وجدنا حلًّا لما يحدث معك.

-وهل أنا في مشكلة حتى تجدوا لها حلًّا؟

-ليست مشكلة، ولكن أنت ملاك غير بقية الملائكة.. أنت تفكر كثيرا، أنت تشبه البشر بعض الشيء.. متمردون.

-حاشا أن أتمرد، والله يعلم ما بي، أنا فقط أفكر، وربما أحب بني آدم.

-لذلك وجدنا حلًّا يجعلك تجد إجابات على كل أسئلتك وأيضا تعيشها كواقع.

-لم أفهم، كيف أعيشها كواقع وما الحل؟

-أن تنزل الأرض تعيش فيها بشريًّا.. تعيش حياتهم كفرد منهم.

يندهش صبرائيل لحديث رئيس الملائكة.. وقبل أن ينطق يكمل الرئيس حديثه قائلا:

-ستعيش بين البشر كواحد منهم وستحمل صفاتهم كطبيعة بشرية لأجسادهم، وربما تخطئ مثلهم ويغفر لك.. ولكن بشروط..

تساءل صبرائيل في اهتمام شديد:

-ما هي؟

-الأول.. أن تمر بجميع مراحل عمرهم، من كونك جنينًا في رحم أمّ وحتى الشيخوخة والممات وبعد الموت يمكنك أن تعود ملاكا مرة أخرى، ولكن تذكر أنه لا يمكن أن تعود ملاكا إلا بعد انقضاء مراحل الإنسان العمرية وبعد الموت. والشرط الثاني.. عندما تتجسد كبشري تنسى أنك كنت ملاكًا وانك تعلم بوجود الله، لا تتحدث مع أي إنسان حول قضية الإيمان

ووجود الله إلا في حيز أنك مؤمن.. كإنسان مؤمن بالله ورسالة محمد، حتى لا يختلط الأمر عليهم بأنك نبي مثلا.

الثالث.. عندما تصبح بشريًّا، ستؤخذ منك صلاحيات الملائكة وقدراتهم حتى إنك ستفكر مثل البشر، ولكن سيبقى معك صلاحية التحدث لنا، ولكن لا تطلب المساعدة، فلا أحد منا سيساعدك إلا ما أمر الله به، أي قدرك الذي وضعه لك، ثم إيمانك ودعاؤك له لأنك كأي بشري ستوضع لك اختبارات وابتلاءات.

همهم صبرائيل ثم قال:

-موافق.

-فكر جيدا، فحياة البشر صعبة ومليئة بالاختبارات وكثير منهم غير راضٍ بقضاء الله ومنهم من يكفر وقليل منهم من يرضى.

-لا تنسَ أنني ملاك وأعلم أنها اختبارات وسأرضى بها لأنها من الله.

-ربما.. ولكن لك ذلك.. قريبا أم ستحمل بطفل وستبقى أنت روحه وبعد ولادتها ستعيش في جسد بشري.

يخرج صبرائيل من لقائه برئيس الملائكة ويأوي إلى ركنه فيأتيه روفائيل فيقص عليه ما حدث، يحذره روفائيل أن يفكر جيدا، فربما هو ينجرف وراء غواية ستضره فيما بعد، ولكن صبرائيل لا يستمع إليه كل ما يفكر فيه هو ذلك العرض الذي قبله دون تردد.

*****

في الأقصر وفي بيت صغير بُني من الطوب اللبن، لا ينم إلا عن فقر من يسكنون فيه، أب وأم وبناتهما الخمس.

«يونس» ذو الوجه الفرعوني والملامح الحادة، دائم التذمر لعدم إنجاب زوجته ولد يحمل اسمه ويورثه في الأرض، فكان حين تلد زوجته أنثى كل مرة يسخط عليها ويهم بطلاقها، وتحدث المشكلات بينهما كثيرا بسبب ذلك الأمر.. الأم «فاطمة» التي تحمل الهم كثيرا حتى أصبح كأنهار من التجاعيد المرسومة على وجهها النحيل على الرغم من جمالها، تتحمل ذلك الزوج البائس، تظل ساهرة الليل تبكي وتتضرع إلى الله كثيرا أن تنجب الولد الذي سينقذ زواجها ويحمي بناتها من التشرد والضياع.

يوما بعد يوم.. إلى أن يستجيب الله لدعائها فتحمل للمرة السادسة، يفرحون كلهم بذلك ولكن يهددها إن لم يكن المولود ولدًا فسوف يطلقها وتذهب ببناتها لبيت أبيها.

مرحلة الجنين

يدخل صبرائيل كروح في نطفة الجنين الذي أصبح عمره أربعون يوما، يظل هكذا حتى يتكون جنينًا صغيرًا، كقطعة لحم تسبح في بحر الرحم يفكر أنه لا يستطيع الحراك أو الحديث، لا يستطيع فعل شيء سوى التفكير، كيف سيرى العالم بعين بشري؟ تمر الشهور الخمسة الأولى، وتذهب الأم إلى متابعة الدكتور فيخبرها أن المولود ولد و.. تشعر الأم بفرحة عارمة، وكأنه قضي الأمر في حسابها بدخولها الجنة.

يشعر صبرائيل بذلك ولأول مرة يشعر بالفرح.

ها هو أول شعور له يشعر بالسعادة لشعور الأم.. إنه يشعر بالمرأة التي ستكون أمه.

تعود «فاطمة» لبيتها فرحة وتقابل بناتها، وتزف لهن الخبر فيفرحن جميعا حتى يدخل الأب ويعلم فتكتمل فرحتهم. ثم تمر أيام كثيرة تعيش الأم سعادة لم تعشها من قبل.. ويشعر صبرائيل بما تشعر به الأم، ولكنه أيضا يعيش داخل رحم، مختنق لا يستطيع فعل شيء سوى الانتظار.

يتساءل كثيرا متى سأخرج، لقد اختنقت في هذا المكان الضيق، متى سأخرج لأرى تلك المرأة التي أشعر بها.. لماذا أحن إليها؟ وأفكر بها كثيرا..؟ ما هذا؟ أهي تلك المشاعر.. هل هذا الحب؟ نعم أنا أحبها. وأيضا أشعر بالسعادة لأجلها.. أريد لتلك الأيام البطيئة أن تمر حتى أخرج لرؤيتها.

مرحلة الطفولة

يشعر صبرائيل أن جسده الصغير ربما اكتمل؛ فيجد نفسه ينقلب رأسا على عقب، رأسه موجه تجاه فتحة الرحم، يفكر أنه ربما حان الوقت.

في تلك الأثناء.. تشعر الأم بآلام الولادة ليلا فتوقظ زوجها وتخبره أنه حان الموعد ويجب أن يذهبوا إلى المستشفي لتلد.

في المستشفي، تلد الأم ويخرج صبرائيل ممسكة به يد الطبيب، يستنشق صبرائيل أول هواء يدخل رئتيه، لم يبكِ ويصرخ صرخة الميلاد كباقي الأطفال، ولكنه كان مبتسما حتى تعجب الطبيب وقال للأم إنه لأول مرة يرى طفلا يخرج لهذه الدنيا لا يبكي، بل يبتسم، فهنيئا لك ذلك الطفل.. تبتسم الأم وتمد يدها لتأخذ طفلها الذي بدا وجهه كلوزة قطن لم تقطف بعد. فتقول إنها دعت الله كثيرا حتى يأتي ذلك الطفل.

يبارك الطبيب للأب الذي كان يضحك كأنه طفل صغير فرح بالولد. يحتضن الأم والطفل معا شاكرا الله ثم الطبيب ثم زوجته يقبلها على رأسها قائلا إنها رفعت رأسه أمام أهله وأنجبت له وريثًا.

يسمع صبرائيل حديثه ويفكر مستنكرا: وريث؟ وريث لماذا؟ فالأرض لله، فعن أي ورث يتحدث فكل من على الأرض زائل.. فما هذا الجهل؟

تنادى إلى مسامعه صوت آخر يقول.. هل اخترتم اسما للطفل؟

وكان ذلك صوت الممرضة التي لا يراها.

قال: سأترك الاسم لأمه.

قالت الأم حاضنة ابنها ومبتسمة:

-سأسميه صبري.. فهو آخرة صبري.

ردد: نعم، ليكن صبري.. الآن لي ابن واسمه «صبري يونس».

فكر صبرائيل أن وكأن الأم تشعر أيضا بي فأسمتني صبري، وكنت في السماء صبرائيل.

ينظر صبرائيل بعينه ليرى تلك المرأة التي هي أمه يجدها تمسح على رأسه مبتسمة قائلة:

-يا ملاكي يا حبيبي أنت أنقذتني من الطلاق الذي كان محتما، أنقذتني من التشرد أنا وأخواتك أنا أسعد امرأة في الدنيا الآن أنا أسعد امرأة لأنك ابني..

ينظر لها صبري مبتسما فتردف: انظر يا يونس، أرى هذا الطفل مختلفًا عن أي طفل آخر، انظر إنه يبتسم لنا ووجهه منير يشع نور وكأنه ملاك.

-نعم، أرى ذلك.. يشبهك كثيرا؛ فأنتِ أيضا ملاك وقد تحملتِني كثيرا. ولكن من الآن أنتِ فوق رأسي.

-لا عليك يا زوجي الحبيب، فأنا أعرف العادات جيدا.

يعود بزوجته وطفله إلى البيت في اليوم الثاني وبعد كتابة ابنهما في سجل المواليد.. صبري.

*****

البيت يملؤه الفرح بالمولود الجديد، والأم وشقيقاته وأيضا الأهل الذين يأتون للمباركة. يشعر صبري بالفرح مثلهم عندما يراهم كلهم فرحين به وعند مداعبة شقيقاته له.. شقيقاته أيضا أطفال فأكبرهن "حلا" وتبلغ من العمر اثني عشر عاما، ثم "هنا" في العاشرة.. "علا" في الثامنة و"منى" في الخامسة.. و"آلاء" في الثالثة من عمرها.. ينظر بعينيه الصغيرتين ويجد أنه يعيش في بيت صغير لا ينم عن وضع مريح فهم في حال فقيرة.. الذي يعمل أجري ويخرج فجرا سعيا لرزقه، نعم، إنه هو ذلك الرجل الذي كنت رأيته قد خرج لرزقه، فعاد يومًا خاليَ اليدين وشكر ربه، تذكرته الآن.

عندما أكبر وأستطيع العمل، لن أتركهم يحتاجون لشيء.. وأرجو من الله أن يرزقه لأجلنا، فقد زاد حمله الآن بالطفل السادس.

*****

تمر الأيام، وصبرائيل حبيس ذلك الجسد الصغير المسمى بصبري، لا يقوى على الحراك، يريد أن تمر الأيام حتى يكبر، يريد أن يتحدث لتلك المرأة وأبيه، يريد اللعب مع شقيقاته اللاتي دائما يلعبن معه فلا يستطيع سوى الضحك والابتسام.. تمر الأيام ثقيلة ويتغير الوضع بعد أن كانوا سعداء بالمولود الجديد، بدأت تدب المشكلات مرة أخرى، ولكن تلك المرة كانت بسبب الفقر وعدم قدرة على إعالة عائلته، رزقه القليل لا يسع إعالة عائلة من ثماني أفراد.

يستيقظ ليلا على نحيب أمه وزوجها يصرخ فيها بسبب الفقر، فكل يوم يخرج ويعود بلا رزق والأطفال جائعين والأم تفعل ما بوسعها، ولكن لا تستطيع دائما تدبير الأمر، وتقول له إنه يجب أن يجد عملا مستمرًّا أو أن يأخذ من إخوته.. يرد أنه يبحث عن عمل ولا يجد، فمن سيوظف رجلا لا يملك شهادة أو حتى يفك الخط.

يستمع إليهم صبري بحزن ولا يملك من الأمر شيئا، فهو الآن طفل صغير لا يملك إلا الشفقة والحزن على الأم التي باتت تعسة وحزينة بسبب المشكلات التي تزداد كل يوم سوءًا شيئا فشيئا وبات الأمر شاقا عليها.. يفكر أنه كم يود أن يحتضنها.. إنه شعور الحنان ثم الحزن عليها.

أنا أشعر، أنا بتّ أعرف ما المشاعر.

بعد تسعة أشهر يستطيع صبري الجلوس وإصدار الأصوات كالحروف.

تمر الأيام على الوتيرة نفسها إلى أن.. لل لل لل، تنتبه الأم إلى صبري النائم في حضنها محاولا النطق؛ تفرح الأم كثيرا وتسأل ماذا تريد أن تقول؟ يردد صبري مرارا وتكرارا لل لل لل إلى أن تخرج الله خفيفة من فمه الصغير، تضحك الأم مندهشة فأول ما يحاول النطق به أي طفل تكون مقاطع الحروف الشفوية كماما أو بابا، أما صغيرها على غير عادة الأطفال ينطق كلمة الله.. تكلمه قائلة "منذ أن خرجت من رحمي ورأيت وجهك المشع بالنور فعلمت أنك لست كباقي الأطفال، أحسست أنك ملاكٌ أنزله الله ليجبر خاطري بعدما عانيته مع زوجي وعائلته.. والآن بعد أن بدأت حياتك باسم الله فأظن أنك فعلا من الملائكة، وأحمد الله عليك في كل حين يا ملاكي الصغير"

تمسح بيدها على خده ورأسه في حين يبتسم لها مفكرا: لم يكن للملائكة يوما أم حتى يشعروا بما أشعر به تجاه تلك المرأة وأيضا ما تشعر به تجاهي.. لا أدري ماذا يسمي البشر ذلك الشعور.. الحدس.. كيف يكون لديها ذلك الشعور المؤكد بأنني ملاك؟ وكيف يكون ذلك الشعور قويًّا لدرجة التأكيد.. كم أحب تلك المرأة التي تغمرني بكل تلك المشاعر..

حينها يدخل الأب تخبره الأم فرحة أن أول كلمة نطقها صبري كانت الله وليس بابا أو ماما.. لا يبدي أي اهتمام لذلك الخبر، فالتعاسة تملأ وجهه وكأنه بعمر الستين.

تتجه إليه متسائلة ما بك؟ ينهرها كالعادة وتبدأ المشكلة، يخبرها أن الآن صبري يأكل مثل إخوته، وأصبح لديه سبعة أفواه ليطعمهم، ماذا يفعل؟ ترجع لابنها والدموع تنهمر من عينها مبتسمة في وجه صبرائيل قائلة له: "كنت أظن أن بمجيئك ستنتهي جميع مشكلاتنا ولكن لم يتغير شيء سوى أنك طفلي الحبيب.."

*****

من بعيد، عينا الشيطان "أسمر" تراقب صبري وتتساءل كيف إن هذا الطفل ليس له قرين "شيطان" وكأنه بلا روح، وكيف لا أستطيع أن أقترب منه أو أوسوس له، فهالة من النور تحيطه، طفل أول كلمة ينطقها هي "الله"، أظن أن هذا الطفل له شأن كبير في الأرض، ربما يكون نبيًّا جديدًا؟ لا، لا، كيف ذلك فمحمد آخر الأنبياء! إذن ما هذا؟ ربما سيكون رجلًا صالحًا؟ لا أيضا، فمازال طفلًا، ربما ملاكًا، وهنا اتسعت عينا "أسمر"، ولم لا؟ ولكن كيف يكون ملاكًا في جسد طفل؟ ولكن ذلك أيضا ليس مؤكدا، ولا أستطيع أن

أخبر السيد الآن، سأنتظر وأراقب حتى أعرف تلك القصة.

*****

وفي ليلة ما كالعادة بعد منتصف الليل يحدث شجار بين والأم والأب، وتنام الأم حزينة ويظل صبري مستيقظًا، يفكر بها وبكم المشاعر التي شعر بها، إلى أن شعر بشيء وكأن أحدا ما بجواره، ولكنه لا يراه، فكر بأنه ربما ملاك، إلى أن ظهر له كقبس من الضوء. تبسم صبرائيل مفكرا:

-أأنت روفائيل؟ أنا أشعر بك، ولكني في جسد صغير لم ينطق بعد، ولا أستطيع الكلام وأتنمى لو أنك تسمع أفكاري.

أتاه الرد في رأسه:

-نعم، أنا روفائيل وأسمعك، هل أنت سعيد الآن؟

-اااااه، كم أنا سعيد على الرغم من ذلك الجسد الصغير العاجز عن فعل شيء، ولكن تلك مرحلة الطفولة عند البشر.. نعم، أنا أشعر الآن وأشعر بالسعادة.. وسعيد بكل المشاعر حتى السيء منها.. ما أجمل أن تشعر.. هؤلاء البشر محظوظون، ولكن أنت ما جاء بك إلى هنا يا صديقي؟

-أنا أراقبك دائما.. وقد أذن لي أن آتيك وأتحدث معك كلما احتجت.

-أنا الآن أشعر بشعورين، الأول بالسعادة، لأنك هنا بجواري، والثاني بالحزن لأني لا أراك؛ فالبشر لا يستطيعون رؤية الملائكة، فأنت تعرف أن ذلك فوق قدراتهم.

-أعرف يا صديقي، ويكفي أن أكون بجوارك وأطمئن عليك، وأعرف أنك سعيد بحياة البشر، ولكن ربما مؤقتا.

-لماذا تقول ذلك؟ فربما أكون سعيدا طوال حياتي كبشري!

-البشر يشعرون بالتعاسة حتى في أوقات فرحهم، فلا شيء يكفيهم ولا شيء يرضيهم.

-ربما ذلك، لأنهم لا يعرفون قيمة حياتهم.. نحن ملائكة ومعصومون من الخطأ، ولكن نتمنى حياتهم.

-أنت من تمنى، أما أنا وباقي الملائكة لا نتمنى ذلك، نحن يكفينا أننا بجوار الله.

-أنا أيضا أحب وجودي بجوار الله وأحمده كثيرا أنه خلقني ملاكا، ولكن استهوتني حياة البشر فأردت التجربة.. أردت تجربة المشاعر.

-لا أعلم كيف أنت تنكر وجود المشاعر لدينا على الرغم من أننا تحدثنا كثيرا عن ذلك، وأيضا الدليل على ذلك أنني افتقدتك بعد رحيلك، وطلبت من الرئيس رؤيتك كل حين.

-مشاعرنا كملائكة تختلف كثيرا عن مشاعر البشر، أتعلم أن حتى المشاعر السلبية كالحزن والتعاسة والضيق تسعدني.. أشعر بأنني حيّ على الرغم من أنني في ذلك الجسد، وإلى الآن أشعر بها من خلال من حولي دون أن أتحدث أو تكون مشاعري الخاصة.

-ربما يكون كلامك صحيحًا، ولكن أنا ما زلت راضٍ عن كوني ملاكا؛ فكل البشر يتمنون أن يكونوا مثلنا.

-أما أنا فأحيا حياة الاثنين، البشر والملائكة.

-نعم، أنت محظوظ.. الآن سأنصرف وأتركك، وسآتي إليك مرة أخرى.

-لمَ الآن؟ لتبقَ قليلا أود التحدث معك أكثر، أود أن أحكي لك عن تلك المرأة فاطمة، أقصد أمي. مطلقا ضحكة صغيرة.

الحياه الجديدة، لي أب وأم وإخوة.

-سآتي إليك مرة أخرى ونتحدث كثيرا، ولكن الآن سأذهب، فقريبا ستشرق الشمس ويجب أن نأخذ الأرزاق ونوزعها.

-قل لي هل أستطيع أن أطلب أن يبقى لأبي بعض الرزق؟ فكثير من المشكلات تحدث هنا بينه وبين أمي بسبب قلته!

-الأمر ليس بيدي يا صديقي، فذلك تدبير الله، ونحن لا نتدخل فيه، له الأمر ولنا الطاعة.

-ألا تستطيع توصيل طلبي للرئيس.

-قلت لك لا نستطيع، ماذا سيفعل الرئيس إن أوصلت له طلبك؟ ثم إنه قال أن لا أحد سيساعدك ألا تتذكر؟

-نعم، أتذكر، ولكن ظننت أنه يمكن مساعدة تلك العائلة التي أصبحت أنا جزءًا منها.

-تحمل الآن حياة البشر، فقدرك أن تعيش وسط عائلة فقيرة، ولن نتدخل في أقدار الله التي وضعها بيده.

-حسنا يا صديقي، ولكن لا تنسنَ، تعالَ لزيارتي.

-سأفعل..

ثم تختفي بقعة النور ويظل صبري يفكر في حديثه مع روفائيل.

*****

-"ملائكة"

قالها الشيطان "أسمر"

-نعم، فهمت الأمر، فهمت لمَ ليس لديه قرين أو أستطيع أن أوسوس له.. لأنه ملاك في جسد بشر ويظهر له ملاك آخر يحرسه. ولكن ما لا أستطيع فهمه كيف يكون ملاكٌ في جسد طفل ولما؟ أظن أن ذلك حدث كبير سيسر السيد عندما يعلمه.

يختفي من بيت صبري ويظهر أمام رئيسه قائلا:

-حدث مهم وكبير يا سيدي.

يظهر إبليس بوجهه القبيح على عرشه قائلا:

-أخبرني.

-على الأرض، وفي بيت فقير، ولد بشري بروح ملاك.

يتكئ إبليس على عصاه إلى الأمام في اهتمام قائلا:

-كيف ذلك؟

-رأيت طفلًا ليس له قرين منا، وعندما حاولت الاقتراب منه لم أستطيع، حوله هالة من نور تحميه، ظللت فترة أراقبه حتى آتيك بالخبر اليقين، إلى أن رأيت اليوم ملاكًا آخر يقف بجواره ويحدثه؛ فعلمت أن الطفل أيضا ملاك.

-ربما يكون طفلًا طبيعيًّا؛ فالملائكة تحب أطفال البشر وتداعبهم.

-سيدي كما قلت لك، هذا الطفل ليس له قرين منا كحال كل البشر.

غمغم إبليس وهو شارد.

-نعم، هذا أمر مهم، وأود أن أعلم إن كان هذا الطفل ملاك، فكيف ولم يعش وسط البشر!

ثم ينظر إلى "أسمر" قائلا:

- أوكلت لك هذا الأمر، فلتظل دائما في هذا البيت وتأتني بكل ما يحدث.

-أمرك سيدي

قالها "أسمر" في سعادة، ثم اختفى تاركا إبليس شاردا غارقا في تساؤلاته.

ماذا يحدث في السماء؟

*****

يحاول صبري الحبو، ثم الوقوف مرتكزا على شيء، في حين أنه يتعلم كثيرًا من الكلمات يوما بعد يوم بمعاونة أمه وشقيقاته مثل بابا وماما، يفرحن كثيرا كلما نطق كلمة جديدة، وها هو يقف وحده، فتقف أمه أمامه على مسافة قريبة تحثه على المشي إليها. يفرح صبري كثيرا ويفكر: أنا الآن أخيرًا سأتكلم وأمشي وأيضا أكبر الآن أستطيع التعبير وأيضا الحديث مع أمي، الآن سأبدأ تجربة باقي المشاعر.

أخرج مع أمي إلى السوق الذي كنت أوزع فيه الأرزاق قديما، السوق الذي أحفظه عن ظهر قلب.. كلما يراني أحد يحاول ملاطفتي والضحك واللعب معي، أتجاوب معهم كطبيعة طفولة البشر.. تقول لي أمي إنني طفل محبوب، وقليل البكاء، ولذلك تخاف أن يحسدني الناس، لذلك كانت تحاول إبقائي بعد ذلك في البيت مع إحدى شقيقاتي، لا أستطيع أن أقول إنني سئمت الوجود الدائم في ذلك البيت، وأود الخروج كل حين لأرى الناس، ولكني إلى الآن صغير على قول جملة كاملة.. غدا عندما أكبر إن شاء الله، سأقول لها أن تدعني أذهب معها.. تأتي إليّ أمي مبتسمة وبيدها شيء قائلة:

-خذ يا صبري واحدة من التين.

أخذتها بيدي ونظرت إليها لبعض الوقت، ثم قمت برفعها إلى أنفي وشممت رائحتها فوجدتها طيبة، فقمت بتناول قطعة منها وأنا مغمض العين

أفكر أن طعمها جميل، وأود لو أنها لا تنتهي، أفتح عيني على صوت ضحكات أمي قائلة:

-بني، لمَ شممتَ التين قبل أن تأكله؟!

ابتسمت لها فتابعت:

-هل تعلم يا صبري أن التين فاكهة من الجنة وقد ذكرت في القرآن؟

فكرت أنني شاهدتها في الجنة وأظن أن مذاق فاكهة الأرض يختلف، صحيحٌ أني لم أذق تين الجنة ولكني أفضل تين الأرض.

*****

تأخذني أسماء للّعب مع أبناء جيراننا في مثل سني، ولكني لا أستطيع اللعب، أرى ذلك شيئًا تافهًا أن أفعله، ولكني الآن طفل صغير ويجب أن أعيش تلك الفترة، ولكن لاحظت أمي ذلك الشيء وأنا جالس بجوارها، تنظر إليّ في حيرة، تضع وجهي الصغير بين يديها في حنان وتسألني: لا أراك تلعب مع باقي الأطفال ولا تتحدث لهم، أنت غريب كليّة، وكأنك تراقب باقي الأطفال، أشياء كثيرة أراها ولا أستطيع تفسيرها، بنيّ ما بك؟ لمَ تجلس وحيدًا تراقب الناس فقط وتبتسم.. أمم سأذهب بك إلى الطبيب.

ويوما ما ذهبت بي إلى المستشفى الصغير في القرية، وشرحت الأمر للطبيب، فقال لها إنه طبيب باطنة فقط، وأنه يجب أن تذهب بي إلى طبيب نفسي أو تخاطب، سألته ما هو التخاطب؟ فرد "إنه طبيب خاص باضطرابات الأطفال، يعالج تلك الحالات مثل التوحد ومتلازمة داون "أطفال المنغولي" والتأخر اللغوي وغير ذلك" سألته وهل ابني يعاني من شيء من تلك الحالات؟ فأجابها ربما يعاني التوحد! أرادت أن تعرف مزيدًا ولكن وقتها انتهى، ويريد أن يرى باقي المرضى.. تخرج بي من عند الطبيب، تحتضنني بقوة وكأن أحدا ما سيختطفني منها، وعندما عدنا أخبرت والدي بذلك فأجاب "هذا ما ينقصني، يوم أن أنجب ولدًا، يخلق معاقًا"، نهرته أمي: ليس بطفلي شيئًا فهو يتحدث جيدا، ولكن غير اجتماعي مع باقي الأطفال" تخرج بي فتجد أمامها الأستاذ فضل مدرس لغة عربية جارنا، فتسأله عن مرض التوحد وأين تجد طبيبا للتخاطب، يرشدها إلى عنوان طبيبة ولكنه في المحافظة، تأخذ العنوان وتذهب بي إليها.

بعد ساعة من الانتظار، ندخل إلى حجرة الطبيبة أسماء التي تستقبلنا بابتسامة تحكي لها أمي ما بي وتقوم بعمل اختبار ببعض الأسئلة التي ترد عليها أمي، ثم تحاول التحدث إليّ، أجد أن الأمر زاد سوءًا، وأني أصبحت عبئا على أمي التي أصبحت حزينة فقط لأنني لا ألعب مع الأطفال، فقررت حينها أن أعيش تلك المرحلة التي تسمى الطفولة، تجاوبت مع الطبيبة كأي طفل في

مرحلتي، فقالت لأمي أنني لا أعاني من أي شيء خطير، ربما حرمان بيئي بسيط بسبب عدم اختلاطه بالبيئة حتى يكتسب السلوكيات واللغة، ولكن لا يوجد لدي اضطراب التوحد، ربما أن تعطيني بعض الوقت حتى أعتاد اللعب مع الأطفال.. ابتسمت أمي كثيرا.. وكان قراري ألا أدعها تحزن مرة أخرى، سأعيش مرحلة الطفولة وألعب مع أبناء جيراني وشقيقاتي حتى لا ألفت نظر أحد، وألا تحزن أمي بسببي مرة أخرى. عندما عدنا إلى بيتنا أخبرت أمي أبي بكل شيء، فقال لها ساخرا أن لديها بعض المال وتريد إنفاقه على الأطباء.. اتركيه يلعب أو لا يلعب سيعتاد ذلك الأمر مع الوقت.. أبي من كثرة أعبائه بدأ بمعاملة أمي بسوء ورويدا رويدا بت أبغضه، نعم إنه يحمل عبئا ثقيلًا، ولكن هي أيضا لا ذنب لها.. يا الله كم أود أن أكبر فأحمل ذلك العبء عنه حتى يعود يعاملها بلطف.. فقد حكت لي أمي وهي تحتضنني بجوارها في ليلة زاد فيه حزنها، إنها تزوجت أبي عن حب، وإن السنوات الأولى لزواجهما كانت سعيدة.. أمي تحكي لي لأنها لا تحكي لأحد آخر، حتى مع أهلها تظهر لهم أنها سعيدة في بيتها وأن زوجها يعاملها بلطف وسعيدة معه. أمي تحكي لي لأنها تراني طفلًا صغيرًا لن أفهم ما تقول في كل مرة تحكي لي، وتخرج ما بداخلها حتى تفيض بالبكاء، أحتضنها بقوه فتبتسم قائلة "ربما أحيانا أشعر أنك تفهمني يا صغيري"

*****

كلما كبرت أفهم أكثر معاناة البشر وأعرف لماذا يحبهم الله..

في بيتنا الصغير ستّة ابناء، وأب وأم، بيتنا كما يقولون فقير، أبي لا يملك قوت يومه، وكثيرا ما يأتي خاليَ اليدين، ولا يجد مخرجًا لغضبه إلا على أمي دائمة الحزن، وفي الأخير يشكرون الله. كلما كبرت أفهم أن معاناتهم تكمن في جزء من الرزق المسمى بالنقود. هنا من يملك النقود يعش سعيدًا، أما من لا يملكونه فيعيشون تعساء، حتى ولو بين أيديهم كل شيء كالصحة والبنين وغيرها من أرزاق.

بدأت الآن التحدث جيدا واللعب والذهاب إلى ما يسمى بالحضانة مع شقيقاتي اللواتي يكبرنني ولكنهن في المدرسة..

تظهر علينا دلالات الفقر على ثيابنا القديمة وأحيانا المهترئة.

تعود أختي الكبرى "حلا" باكية كل يوم شاكية لأمي أن الأطفال يعايرونها بالملابس القديمة والفقر، تحتضنها أمي وتقول إن الأحوال غدا ستتيسر وتشتري لنا كثيرًا من الملابس تعالج أمنا الأمنا بالكلمات والحنان.

بعد الظهيرة، الأطفال يلعبون، أما أنا فأنزوي في ركن أفكر فيما يحدث في بيتنا، أبي التعيس وأمي المتعبة، ونحن الجياع، لا أستطيع أن أقولها "لمَ يفعل بنا الله هكذا" أفكر في روفائيل فأجده يحدثني في عقلي.

-صديقي، أراك الآن تشعر بالحزن!

-لماذا أنت منقطع عن زيارتي؟

-لا تستطيع أن تجدني متى أردت، يجب أن تعتاد على ذلك.

-ولكني لا أطلب سوى الحديث معك.

-يجب أن يكون أصدقاؤك بشرًا مثلك الآن.

-أعرف، ولكنهم أطفال!

-أنت أيضا في مرحلة الطفولة مثلهم، ولكن قل لي لمَ تشعر بالحزن؟

-عائلتي فقيرة، أبي ليس له رزق، ويظل يصبّ غضبه على أمي التي تظل دائما حزينة وأخواتي جياعٌ، نحن فقراء جدا، لماذا لا يرزقنا الله وهو الغني وبيده الأمر؟

-الآن أراك كالبشر بدأت التشكيك، على الرغم من أنك موقن.

-لا أشكك، كيف أشكك وأنا أعلم بوجوده.. أنا أتساءل فقط، وحتى حينما كنت ملاكا، كنت أتساءل لمَ الله يرزق شخصا ما لا يحتاج ويترك أناسا يجوعون؟

-تلك أقدار كتبها الله!

-أعلم ولا أعترض، ولكن لا أفهم.. الآن أرى جزءًا من معاناة البشر، كنت أظن أن الله يحبهم أكثر من الملائكة، ولكن أرى أنه قاسٍ بعض الشيء معهم.

-أنت تفكر هكذا وأنت طفل لم يمر بأيّة معاناة، فماذا ستفعل يا صديقي

حينما تمر باختبارات البشر وابتلاءاتهم، الآن أشفق عليك كثيرا، فقد كنت عزيزا مقربا والآن شقيٌّ منبوذ.

-إلى الآن لم أندم كوني اخترت حياة البشر، على العكس، بت أحبهم أكثر، ولكن لا أحب أن أرى عائلتي التي أحبها تمر بحياة هكذا، أدعوا الله أن يبدل حالهم لأفضل حال.

من جانب آخر، شعور أن يكون لك أم وأب وإخوة يحبونك.. هل تعلم موقف السوق الذي كنت حدثتك عنه سابقا؟

-نعم، أتذكر.

-فكرت فيه طويلا، ولم أفهم تلك المشاعر المتداخلة من الأم لابنها، وعندما أصبحت ابنًا لأم رَءُوم مثل أمي، فهمت تلك المشاعر، أشعر بها، وكيف تُجَنّ عندما يحدث لنا شيء أنا أو أيّة واحدة من شقيقاتي.. فهمت المشاعر المتداخلة أحيانا، أشعر أني أكره أبي وأحبه في الوقت نفسه. أود أن أكبر، ولكن هنا في الأرض يحكمنا الوقت، والوقت يمر بطيئًا جدا.

-معك كثير من الوقت لتعرف أكثر وتعيش كل المشاعر، سأنصرف الآن.

-لا تتأخر في لقائي، فإن الحديث معك يريحني.

-أريدك أن تتماسك وتفكر جيدا.

يصمت الصوت من عقلي فأعرف أن روفائيل قد رحل.

وأظل جامدا مكاني.. أفكر في الله كثيرا.

-إلى الآن يا سيدي، لم أعرف لمَ ذلك الملاك يتجسد كبشري!

قالها "أسمر" إلى إبليس ثم أكمل:

-أنا أراقبه، وأراقب ما يحدث حوله ومع عائلته، وذلك الملاك الحارس له.

ينظر إليه إبليس قائلا: أكمل!

-يعيش في أسرة فقيرة ولكنها أسرة صالحة، لا يتعامل مثل الأطفال، ولا يلعب معهم، حتى إن الأم فكرت أنه ربما به علّة، وكثير ما أشعر أنه يعلم بوجودي وينظر لي بغضب، على الرغم من أني أراقبه من بعيد، أيضا ليس له ملكان عن يمينه وشماله ليسجلا أعماله!

-إذن ليس له لوح محفوظ، فكيف سنعرف لمَ هو في الأرض؟ ربما هو في تجربة ما، وهذا هو الاحتمال الأكبر، فلا أنبياء بعد محمد!

-نعم، فكرت في ذلك وأعمل على هذا الأساس على الرغم من أني لا أعرف ما التجربة.

-الوقت يمر، والطفل يكبر، وإلى الآن لم نستطع معرفة لم هو متجسد.

يظهر أمامهم شيطان آخر ينظر إليهم مبتسما قائلا:

-سيدي، لقد علمت مَن هذا الطفل المتجسد في هيئة بشري

انتبه إبليس وأسمر إليه قائلا:

-إنه الملاك صبرائيل الذي تمرد على كونه ملاكًا وأراد تجربة حياة البشر.

صفق إبليس بيده في فرح قائلا:

-وأخيرا، ملاك تمرّد.

-ليس بمعنى التمرد، ولكنه ملاك أحب حياة البشر فطلب تجربة العيش بينهم، فأذن له الله بذلك.

قال إبليس في اغتياظ قابضا على يده.

-البشر البشر البشر، آدم وبنيه سبب كل بلاء أتى على كل الأجناس، حتى إن الأرض نفسها تشتكي منهم، إذن لنريه حياة البشر!

رد أسمر قائلا:

-كيف يا سيدي، فنحن لا نستطيع الاقتراب منه!

قال إبليس وبريق من الفرح في عينيه الشرستين.

-ربما لا نستطيع الاقتراب منه، ولكن نستطيع الاقتراب ممن حوله، أود إغواءهم وأن يعيشوا في تعاسه، وسوسوا لهم ولنضيق عليه الخناق، أُلزمك به يا أسمر وأود معرفة كل الأحداث التي سيمر بها.

-لك ذلك يا سيدي.

قالها أسمر ثم اختفى.

*****

تجلس أمي بجواري تمسح كعادتها على شعري برفق قائلة: فيك كثير لا أفهمه، ولكن كل ما توصلت إليه أنني أحبك من كل قلبي، أعرف أن عقلك أكبر من سنك، وأعرف أنك مستاء كشقيقاتك، ولكن يا ولدي، الفقر ليس بيدينا، قدرنا ذلك، ويجب أن نرضى ونشكر الله ويجب أن نتحمل وأيضا نعين أبيك ولا نحمله فوق طاقته، أعلم أنكم تعانون أمام الغرباء وأيضا الأقارب، ولكن أيضا أعلم أن الله سيبدل حالنا، وخاصة أننا الآن معنا ابن مثلك، سأعلمه جيدا ليعمل ويوفر لنا ما نحتاجه.. قاطعتها قائلا:

-هل ستتحملون كل هذا يا أمي حتى أتعلم وأعمل؟

-هذا نصيبنا سواء شئنا أم أبينا.

الآن أنت وصلت لسن السابعة أود منك أن تتعلم الصلاة، وربما أنت تعرفها.

تغمز لي بطرف عينها مبتسمة، لم أمنع نفسي من رد الابتسامة لوجهها البشوش قائلا:

-نعم، أعرف كيفية الصلاة والوضوء، أنسيتِ أني كنت أذهب أحيانا مع الأستاذ فضل إلى المسجد، فقد علمني كثيرًا.

أومأت برأسها توافق كلامي قائلة:

-إذن وجب علينا الصلاة معا وسنبدأ من اليوم، هل تعرف كيف تؤمنا؟

-نعم أعرف يا أمي.

-أحبك جدا يا بني، وبأذن الله ستكون أنت طريقي إلى الجنة.

-بل أنت يا أمي، عملك الصالح ورضاكِ وإيمانك وثقتك بالله هي طريقك للجنة، واعلمي أن الله يحبك كثيرا.

-بعد أن وهبني إياك، أعرف أنه يحبني كثيرا، فكم من أم لديها ابن مثلك!

تبتسم لي وتذهب، وأنا أفكر كم أحبك أنا أيضا يا أمي

*****

أذهب لأوقظ أبي لصلاة الفجر مع أمي وشقيقاتي.. يبتسم أبي قائلا: أنت ولدي الصالح. وعلى الرغم من أنني لم أكن قريبا منه مثل أمي، ولكن جملته تلك جعلتني أبتسم، وشعرت بالفرح في داخلي حتى رآني أؤمهم في الصلاة، وبعد الانتهاء رفعت يدي إلى السماء أدعوا الله بالرزق والرضا وحسن الخاتمة، ودعنا أبي وخرج لعمله، ثم جلست أقرأ بعض القرآن، وأكملت أمي وشقيقاتي نومهم إلى أن ذهبنا إلى المدرسة، وفي طريق عودتي فكرت أنني أريد أن أعرف كيف يرى

البشر الله والملائكة، فقررت أن أذهب إلى الأستاذ فضل مدرس اللغة العربية وإمام المسجد الذي عندما رآني ابتسم مرحبا بي قائلا:

-حبيبي صبري، تعالَ

ابتسمت له قائلا:

-أستاذ فضل، أود أن أتعلم منك كثيرًا عن الدين.

ضحك قائلا:

-ماذا؟ لم يأتني قبلا طفل يطلب تعلم الدين، ولكن أظن أن طفلًا مثلك يفعلها، ولكن يا صبري هل أنت تقرأ؟

-نعم، قليلا.

-ظننت ذلك أيضا، لأني عندما أحدثك عن شيء أشعر كما لو أنك تعرف.

-لا، أنا أستمتع بحديثك فقط.

-إذن ماذا تود أن تعرف؟

-أي شيء وكل شيء.. أود أن تعلمني كل يوم شيئا.

-حسنا، موافق، ولكن سيكون ذلك بعد الصلاة في المسجد.

-ألا تستطيع في أي وقت آخر غير بعد الصلاة؟

-لم؟

-أنا أصلي بأهل بيتي، ولا أستطيع أن أتركهم وأذهب للصلاة في المسجد.

-جيد جدا يا بني، إذن بعد أن تنهي صلاة العشاء مع أهلك تأتيني إلى هنا، وسأكون انتهيت من أعمالي، ربما تمر عليّ اليوم بعد الصلاة.

-حسنا أستاذ فضل، أستأذنك الآن.

يبتسم لي قائلا:

-تفضل بني.

أخرج من عنده متجها إلى بيتي، فيراني بعض أصدقائي ويريدون اللعب معي، فأقول لهم إني مشغول في أمر ما، تراني أمي التي تقف على باب بيتنا، وعندما أصل إليها تقول:

-لم لا تلعب معهم؟

-لا أود، لديّ أمور أهم.

-ما الأفضل من اللعب مع أصدقائك في سنك هذا؟

-الأفضل أن أذاكر واجباتي وأعمل معك أو حتى العب مع شقيقاتي.

تنظر إليّ بدهشة ولكني أتركها وأدخل إلى البيت.

أظل أنا وأخواتي نذاكر ونصلي إلى أن يأتي أبي فرحا ومعه بعض أكياس الخضار والفاكهة أيضا.

يدخل متجها إليّ يقبلني مبتسما قائلا:

-عندما صليت بنا اليوم خرجت من البيت وبي يقين أن الله سيرزقني وها قد رزقني.. أنت بركة بيتي.

أتت أمي فرحة وأخواتي اللائي لم يذقن طعم الفاكهة منذ زمن طويل.

قالت أمي:

-ألم أقل يا يونس إنه ابن صالح؟ ولكن احكِ لي من أين كل ذلك؟

-وأنا خارج من هنا، ظللت أمشي إلى أن رأيت جماعة ينقلون أثاث منزلهم، طلبوا مني المساعدة شمرت عن ساعدي، وبدأت نقل الأشياء، وأنا أعمل تذكرت ابني وهو يصلي بنا ودعوته لنا بالرزق، وآخر النهار حاسبني الرئيس وقال لي لو أنك بلا عمل أود أن تعمل معي، فوافقت، ومن غد سأخرج معه، الرجل كان كريما معي. لن نعيل هم الأكل مرة أخرى بإذن الله.

ابتسمت وشكرت الله في سري الذي أكرمنا، وأتت لذهني فكرة فقلت:

-أبي، ما رأيك لو عملت معكم؟

أطلق ضحكة قائلا:

-ماذا ستعمل يا بني؟ هذا العمل شاق لا تستطيع أنت أن تحمل أشياء كبيرة.

-أي شيء حتى لو أساعدكم!

-لا يا بني، أنت كل ما عليك فعله أن تدعو لنا، وترعى أمك وأخواتك في غيابي، ذلك عملك.

-ولكن يا أبي..

-اسمعني بني، أنا أود أن تتعلموا وتدخلوا الجامعة، وبعد ذلك تعملوا، لا أريد أن تبقوا مثلي، وتتوهون في زحمة الحياة بلا تعليم وبلا شهادة وبلا عمل.

أفكر في كلامه فأومئ برأسي موافقا قائلا:

-لا تقلق يا أبي، سأكون كما تريد.

يحضنني بشدة مربتا على ظهري.

*****

أذهب إلى الأستاذ فضل بعد صلاة العشاء، يقابلني بابتسامته نفسها ومرحبا بي. أجلس أمامه فيقول لي: أريد أن يبدأ كلامنا عن الله قبل الدين. قبل أن يتحدث، أشعر بذلك الشيطان الذي يجلس بجوار الأستاذ فضل، ولكن أظنه سيختفي عندما يكون المجلس عن ذكر الله، أنتبه إلى سؤال الأستاذ فضل الذي قال:

-بماذا تشعر وأنت تصلي؟

أفكر كيف أجيب عن ذلك السؤال، فيجب أن تكون إجابتي تليق بسن طفل، ابتسمت له قائلا:

-أشعر أني فرحٌ

-فقط؟

-وأشعر أن الله أمامي.

-هل تفكر كيف يكون الله؟

-لا يا أستاذ، أفكر دائما أنه نور.

-عظيم. ولكن الله خلق الملائكة من نور فكيف يكون الله مثل شيء خلقه؟

-إذن كيف أفكر في شكل الله؟

-أول شيء ألا تفكر في شيء خلقه الله، فهو ليس كمثله شيء. كيف يخلق شيئا شبيها له؟ إذن أول شيء عندما تقف أمامه، لا تفكر سوى في أنك لا تستطيع وصفه. عظيم، لم نره. قوي قادر، لطيف بك وأنت بين يديه.

-هل أنت تشعر بذلك؟

تفاجأ بمقاطعتي له بذلك السؤال:

-نعم، أشعر بذلك وأكثر. أشعر حينها أن كل العالم يختفي وأظل أنا بين يديه. أنا والله فقط.

-هذا شعورنا به، فماذا عن رؤيته؟

-إن كانت رؤية الملائكة تكون فوق إدراكنا، فما بالك برؤية الله! لا نستطيع رؤيته مجسدا، ولكن نستطيع أن نراه في خلقه.

الله ليس متمثلا في شيء بذاته، ولكنه في كل شيء. سنجد الله في بزوغ الشمس بعد ليل طويل، سنجده في حضن أم لطفلها بعد ألم الولادة، في حب طاهر في زمن يشوبه الكره. ستجده في كل شيء جميل ينبت من الحطام، في عظمة خلقه للسموات والأرض في الفضاء الواسع المليء بالكواكب والنجوم، في البحار والأنهار وما يغطيه من أسرار. ستجد قوته وجبروته في البراكين والزلازل والانفجارات؛ فهو الجبار. ستجد قدرته في نصرة المظلوم وإعانة المستضعفين؛ فهو القادر. الله في كل شيء يا بني.

قال تعالى "وكل شيء خلقناه بقدر" أترى كل شيء مخلوق بدقة شديدة دوران الكواكب حول الشمس في الفلك، الليل يعقبه النهار.

يغمض صبري عينيه مفكرا في حياته القديمة كملاك، يفكر لو أن البشر مبهورون بما يوجد في الأرض، فماذا لو رأوا السماء والجنة؟ ماذا لو رأوا الملائكة؟ ماذا لو رأوا الله وقربه؟ آه، كم نحن محظوظون والـ..

قاطعه صوت الأستاذ الفضل الذي عندما فتح عينيه وجده ينظر له بذهول قائلا:

-صبري، وجهك يشع نور!

كان وجه صبري كأنه قمر منير يشع نورًا، ابتسم قائلا في ارتباك:

-أنا أحب الله كثيرا! الله موجود في قلبي.

قام وترك الأستاذ فضل غارقا في ذهوله مفكرا ما هذا الطفل الذي إذا ذكر الله أمامه يشع وجهه نورا؟!

وسوس له "أسمر" في أذنيه:

-ربما هو ملاك متجسد في هيئة بشر!

يفكر الأستاذ فضل:

-كيف ذلك، ولمَ؟

-لم لا؟ أنت تعرف وتتساءل دائما أن هذا الطفل ليس كباقي الأطفال، وتشعر أن به شيئا كالأنبياء، أنت أيضا تشك في ذلك، ومع مرور الوقت ستعرف.

ظل الأستاذ فضل جامدا في مكانه يفكر في كل الاحتمالات، ولكن نعم، مع مرور الوقت سيعرف.

*****

عاد صبري إلى بيته فوجد ضيفًا عند أبيه، قام برد السلام عليهما، فقال أبوه للرجل: ذاك ابني صبري الذي حدثتك عنه. كان مازال على وجه صبري بعض البريق، فرد الرجل قائلا:

-ما شاء الله، كما قلت عنه.

قال يونس لابنه:

-بني، عمك "سعيد" يريدنا الانتقال إلى القاهرة، يقول إن هناك العمل وفير، فما رأيك؟

-افعل ما يجب يا أبي.. ربما يكون رزقنا في القاهرة، ولكن أود أن تستخير الله في فعلك.

نظر الرجل إلى الطفل ذي السبع سنوات مذهولًا قائلا:

-هذا ليس طفلًا يا يونس، هذا رجل كبير وحكيم أيضا؛ هنيئا لك به.

-ألم أقل لك، وأيضا هو محبوب من كل الناس لحسن خلقه. إذن سأستخير الله كما قال بني، ويكون الرد بعدها.

-حسنا سأنتظر ردك.

يقوم الحاج "سعيد" ونظراته لا تفارق صبري الذي يجلس هادئا مبتسما.

يحييهم ثم ينصرف ويوصله يونس إلى خارج البيت ثم يعود لابنه قائلا:

-أين كنت يا بني؟

-كنت أتعلم بعض الأشياء من الأستاذ فضل.

-مثل ماذا؟

-كنا نتحدث عن الله.

-الله؟ وماذا علمك الأستاذ فضل؟

-علمني أن الله موجود في قلوبنا وحولنا.

-كيف ذلك؟

قام صبري بمد يده ووضعها على قلب أبيه قائلا:

-هنا يا أبي.. هنا الله.

سرت قشعريرة في جسد أبيه ناظرا إلى عين صبري، وساد الصمت، إلى أن دخل صبري واستلقى على سريره، حتى أغمض عينيه.

*****

في اليوم التالي بعد العشاء، استقبل الأستاذ فضل صبري مبتسما قائلا:

- اليوم، أود أن أسألك أنا بضعة أسئلة.

-تفضل أستاذ فضل.

-منذ الأمس، وأنا أتساءل عن هذا النور الذي علا وجهك عندما تحدثنا عن الله، ولا أجد له تفسيرًا، أود أن أسألك، هل ترى رؤى في منامك؟

-لا، لمَ؟ هل تعتقد أنني نبي مثلا؟

-لا يا بني، سيدنا محمد هو خاتم الأنبياء.

-إذن لم؟

-بني، وقتما تحدثنا عن الله طغى على وجهك نور لم أره من قبل أو أسمع عنه إلا مع الأنبياء والصالحين، وحتى الصالحون المقربون من الله لا يحدث لهم

كذلك. على ذلك، حتى صفاتك حسنة، وأيضا أنت طفل ولكن بعقل شيخ كبير، حديثك ليس بحديث طفل.

- أستاذ فضل، كل ما هنالك أنني أحب الله كثيرا، حتى إنني أفكر به أكثر من أي شيء وسمعت أن الله إذا أحب عبدا أحبه العبد أيضا.

-ربما، ولكن أأنت متأكد أنك لا ترى رؤى؟

-لا أرى شيئًا، ولكن أود أن أتقرب من الله كثيرا، لذلك أريد مساعدتك.

يظل الأستاذ فضل صامتا ينظر إلى صبري، وبعد وهلة رد قائلا: حسنا وربما أنا أيضا أتعلم منك.

رد صبري مستنكرا:

-الأستاذ يتعلم من طفل ذي سبع سنوات؟

-كما قلت لك، طفل سبع سنوات يملك عقل وخلق شيخ حكيم.

-أشكرك لذلك المدح.

-ليس مدحًا بنيّ، أنت كذلك. والآن عن ماذا تريد التحدث اليوم؟

-عن الملائكة.

-آه الملائكة، معلوماتنا قليلة عنهم، إلا ما ورد في القرآن الكريم، وتقريبا هم أول الأجناس خلقا، وأعدادهم لا يعلمها إلا الله، لهم قدرات كبيرة ولا يصفون بذكورة أو أنوثة، خلقهم الله من نور لطاعته، معصومين من الخطأ، ولم يخلق لهم عيوب أو شهوات أو صفات سيئة، وهم عكس باقي

الأجناس لا يتناسلون أو يتناكحون، منهم سيدنا "جبريل" الملاك المختص بإنزال الرسالات من السماء إلى أهل الأرض، ونعرفه بالوحي أيضا و"إسرافيل" الملاك المختص بالنفخ في الصور يوم القيامة و"ميكائيل" الملاك المختص بإنزال المطر وإنبات النبات، و"عزرائيل" ملك الموت المختص بقبض الأرواح، و"رضوان" خازن باب الجنة، و"الزبانية" وهم تسعة عشر ملكا، وكّلهم الله تعالى بالنار، و"حملة العرش" وهم أربعة، و"الحفظة" وهم ملائكة مختصون بحفظ الإنسان وحمايته من الشياطين والجن، وأخيرا، "الكرام الكاتبون"، وهم ملائكة مختصون بكتابة أعمال البشر واحصائها، فعلى كل عبد منا ملك عن اليمين يكتب الأعمال الصالحة، وملك عن اليسار يكتب الأعمال السيئة، وملائكة أخرى من وظائفها العناية بشئون المؤمنين والنزول للنصر والتأييد.

-تقصد أن الله خلق الملائكة لخدمة البشر؟

اندهش الأستاذ من سؤال صبري قائلا:

-لا، لم يخلقهم لخدمتنا، هم جنس أرقى منا، هم خلقوا من نور، ونحن من طين، ولكن الله خلقهم لطاعته ولنشر إرادة الله وأوامره.

-هل تحبهم؟

-نحبهم كثيرا دون أن نراهم، ونتمنى لو أننا ملائكة، فهم أهل السماء القريبون من الله، ولا يشقون، ولن يحاسبوا مثلنا على أعمالنا، هم منذ خلقهم يعيشون في الجنة، أما نحن فمنا من سيدخل الجنة ومنا من سيدخل النار.

-هل يشعرون مثلنا هل يضحكون ويلعبون مثلا؟

-لم يذكر ذلك في القرآن، ولكن عندما خلق الله آدم هم اعترضوا على خلقه، وأظن أن ذلك شعور ولا أعرف لماذا قالوا لله أننا سنسفك الدماء وهذا يحدث فعلا، ولكن الله قال لهم أنه يعلم ما لا يعلمون، ويعلم أن فينا الخير كما فينا سفاكو الدماء، ولكن إبليس وهو الملاك المطيع والذي كان يسمى عزازيل كان..

قاطعه صبري بحدة غاضبا قائلا:

- عزازيل لم يكن ملاكا يوما!

نظر الأستاذ فضل مندهشا من صبري الذي احمر وجهه من الغضب، صمت قليلا ثم قال:

-إذا لم يكن ملاكا فماذا كان؟

صمت صبري قليلا يفكر أنه ربما يكون السؤال فخًّا فقال:

- لا أعلم، ولكن أنت قلت إن الملائكة خلقت لطاعة الله، ولا تعرف العصيان، إذن كيف يكون ملاكًا ويعصي أمر الله بالسجود؟

-هل قرأت قبلا عن الملائكة أو تعرف قصتهم عند خلق آدم؟

هنا صمت صبري، فلا يستطيع الكذب، وأيضا لا يستطيع القول إنه يعرف، فكر سريعا ثم قال:

-من قراءتي للقرآن علمت أنه عصى الله ورفض أمره بالسجود.

رد الأستاذ فضل وهو منزعج لعدم فهمه الأمر وشعوره بأن هناك أمرًا غير مفهوم:

-لم غضبت هكذا؟

-لم أقصد، أنا أحب الله والملائكة، ولا أظن أن أحدا قادر على معصية أمره بذلك العناد والتكبر!

-لم غضبت هكذا؟

ارتبك صبري قائلا:

-قلت لك.

يظل نظر الأستاذ فضل متعلقا بعيني صبري محتارا في ذلك الطفل، فشعوره الدائم أن ذلك ليس بطفل يزداد كلما تناقش معه، لذلك قرر أن يوسع النقاش أكثر حتى يصل إلى الحقيقة. ظل شاردا بعض الوقت في حين أن صبري يشعر بالخجل منكسا رأسه ناظرا إلى الأرض. شعر الأستاذ فضل أنه ربما لو يمرر الأمر كأن شيئا لم يحدث، حتى يبقى صبري على طبيعته فيتحدث أكثر.. ابتسم ثم قال:

-لم هذا الخجل يا صبري؟

رفع صبري نظره إلى الأستاذ فضل فوجده مبتسما فارتاح قلبه قليلا فرد:

-ليس خجلا، ولكن حزنت قليلا عندما شعرت أنني أزعجتك، أعتذر.

-لا تعتذر يا بني، لم أنزعج، أنا أردت أن أفهم سبب غضبك ولكنك محق.. هناك أقاويل عن جنس إبليس، فهناك من قال إنه من الجن، ولكنه كان عبدا مطيعًا جدا حتى لم يترك بقعة في الأرض إلا وصلى وتعبد فيها، فأسكنه الله منزلة رفيعة كالملائكة، وهذا أيضا ما ورد في القرآن، وهناك من قال إنه من الملائكة، ولكنه عصى الله فتأبلس، وأنت ماذا ترى؟

رد صبري مرتبكا:

-أرى ماذا؟

-أترى إبليس من الجن أم من الملائكة ولكنه فسق؟

رد صبرائيل سريعا:

-الله أعلم، ما أدراني؟ أنا طفل وأنتم الكبار حتى لا تعرفون!

-أنا أطلب رأيك فقط ولا أقول أنك تعرف، فما رأيك؟

-أنا أميل لرأي أنه من الجن ففسق، لأن كما قلت الملائكة خلقوا للطاعة ولا يستطيعون معصية الله، ولكن إبليس كان متكبرا.

-نعم، أنا أيضا أرى ذلك، وبدليل قول الله تعالى "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا".

وأظن أن الحديث القادم سيكون عن إبليس وبني جنسه.

رد صبري مترددا:

-لا أحب الحديث عنه أو عن بني جنسه، هو أتفه من ذلك بكثير، أنا أود الحديث عن سبب تفضيل الله لآدم وبنيه عن الملائكة.

ضحك الأستاذ فضل قائلا:

-ومن قال لك أن الله يفضلنا عن الملائكة؟ على العكس الله يفضل الملائكة عن أي جنس آخر، وإلا لمَ اختارهم أن يكونوا قربه؟

-إذن لمَ أمرنا بالسجود لآدم؟

صمت الأستاذ فضل ليستوعب الجملة التي قالها صبري متسائلا:

-ماذا قلت؟

تردد صبري ففكر في ماذا أخطأ ولم يدرِ لوهلة أنه نسي أنه الآن من البشر، ولا يجب التحدث عن كونه ملاكا.

قال الأستاذ فضل:

-أنت قلت لمَ أمرنا الله بالسجود لآدم؟

انتبه صبري أنه فعلا قال كذلك فارتبك مبتسما وقال:

-لا، أنا قلت لمَ أمرهم الله بالسجود لآدم.

قال الأستاذ صبري سريعا:

-أنا لن أكذّب أذني، أنت قلت ولمَ أمرنا بالسجود لآدم!

-ربما لم أنتبه ولكني قصدت لمَ أمرهم أي الملائكة.

ابتسم الأستاذ فضل فرحا، وقام بوضع وجه صبري بين يديه وقبل جبينه قائلا:

-الآن أنا تأكد شعوري، لا أعرف كيف ولكنه مؤكد.

فهم صبري ما يقول وشعر بالخوف ولكنه أبدى للأستاذ فضل أنه لا يفهم شيئًا قائلا:

-لا أفهم ما تقصد؟

-أنت تفهم وتعي جيدا وأيضا تشعر.

انتفض صبري في مكانه وتسارعت دقات قلبه فقال:

-سأنصرف الآن.

-لا، أنا سعيد أنك هنا معي، اجلس لبعض الوقت!

-شكرا أستاذ فضل، ولكن يجب أن أذهب لأنام.

ابتسم الأستاذ فضل وقام مرة أخرى بتقبيل جبينه قائلا: سأنتظرك غدا، أود الحديث معك عن أمور كثيرة نتناقش فيها معا.

نظر إليه صبري مرتبكا قائلا:

-بإذن الله.. السلام عليكم.

-وعليكم السلام.

أوصله الأستاذ فضل لباب البيت وظل واقفا على باب بيته ينظر لصبري وهو مغادرا إلى بيته المواجه له، إلا أن دخل صبري رجع إلى غرفته وآلاف الأسئلة تدور في رأسه.

*****

دخل صبري إلى بيته منتفضا والدموع تغرق عينيه وتسيل على خديه الورديين.

تراه أمه فتفزع وتقوم إليه قائلة:

-صبري ماذا بك؟ لمَ تبكي؟

-لا شيء يا أماه.

-كيف لا شيء أنت تبكي؟ احكِ لي أين كنت وماذا حدث؟

يمسح الدموع عن خده بيديه قائلا:

-لا شيء يا أمي.

-حسنا أين كنت؟ آه نعم، أنت كنت عند الأستاذ فضل ليعطيك الدرس أليس كذلك؟ إذن ماذا حدث جعلك تبكي؟

رد غاضبا بصوت عالٍ:

-أماه قلت لك لا شيء ألا تفهمين؟!

تندهش الأم، فلأول مرة يصرخ بوجهها هكذا، علمت أن أمرًا ما حدث، ولكنها ربتت على كتفه ثم تركته، زاد حنقه وغضبه أكثر فقام متجها إلى الباب وخرج وظل يمشي على الطريق الزراعي إلى أن وصل إلى شجرة كبيرة، جلس تحتها وظل يضرب رأسه بيديه ويبكي بصوت قائلا:

-الملائكة لا تكذب يا الله، أستغفرك كثيرا، اليوم كذبت، واليوم نهرت أمي، اليوم عصيتك يا الله!

وجد صوت روفائيل في عقله قائلا:

-صديقي، أظن أنك اليوم بدأت التعامل كبشري فعلا!

بصوت متحشرج رد صبري:

-روفائيل، اليوم عصيت الله، كذبت حينما قلت للأستاذ فضل إني لم أقل.

-ولمَ كذبت عليه؟

-شك أني لست بشرًا، وأنا أخطأت وتحدثت بصفتي ملاكا، فأكدت شكوكه، لو كنت قلت الحقيقة فسأؤكد له أني كما يعتقد وهو في كلا الأمرين تأكد. أتعلم يا روفائيل؟ أنا لا أستطيع أن أبقى بشريًّا، لا أستطيع التعامل مثلهم أو حتى في جسد ذلك الطفل، هذه التجربة لا تستحق أن أكذب.

يشفق عليه روفائيل كثيرا قائلا:

-هون عليك يا صديقي ولا تندم الآن، فأنت أمامك عمر طويل وذلك فقط عمر الطفولة

-لا، لا أريد تكملتها، إن كنت في عمر السبع سنوات وعصيت الله، فماذا سيحدث عندما أصبح مراهقا ورجلا!

-تذكر أنك كنت تريد أن تجرب الخطأ وأن يغفر الله، ربما يغفر الله لك مثل البشر ولا تنسَ أن ذلك اختيارك، ثم تذكر الشروط أنك لن تستطيع العودة إلا إذا أكملت جميع مراحلك كبشري ثم الموت.

-آه يا إلهي!

يضع صبري رأسه بين يديه وينتحب، ومن مسافة بعيدة جدا يقف "أسمر" يراقب ويستمع إلى الحديث.

*****

في تلك الأثناء تذهب الأم إلى بيت الأستاذ فضل، فتفتح لها زوجته الباب تسألها عن الأستاذ فضل وتدخل البيت، تدخل إلى غرفة الاستقبال فتجده يقرأ القرآن، يبتسم حين يراها فيصدق ويغلق المصحف قائلا:

-أهلا أم صبري، كنت سأمر عليكِ غدا ولكن الحمد لله أنك أتيتِ اليوم.

قالت: خيرا يا أستاذ فضل، صبري عاد من الدرس باكيًا حتى إنه لأول مرة ينهرني أو يغضب مني!

ابتسم الأستاذ فضل قائلا:

-ذلك أيضا ما أود التحدث عنه، صبري.

-ماذا به ولدي؟

-به كل خير، ولكن لا أجده مثل أي طفل، هو طفل مميز للغاية، عندما أتحدث إليه أشعر بأني جالس مع شيخ كبير وعقلية حكيم وليس بطفل، حتى إنه لا يخطئ ويعلم عن ماذا يتحدث جيدا. أود أن أسألك هل تصدر منه في البيت أمور غير طبيعية؟

ترددت الأم ولكنها تثق في الأستاذ فضل فقالت:

-سأحكي لك، ولكن يبقى الأمر سرا.

-نعم يا أم صبري، أنتِ تعرفينني جيدا.

-صبري عند ولادته نزل من رحمي ووجهه يشع نورًا، نور غشي أبصارنا وكان مبتسما، ثم أول كلمة نطقها هي الله. وهو حكيم فعلا في تصرفاته وأقواله، وكما تقول، لا نجده كطفل، حتى إن أباه يعمل برأيه وحكمته، وعندما كان طفلا كثيرا ما كنت أراه يسجد ويتمتم عندما يكون وحده، وحفظ القرآن في السنة الثالثة. أمور كثيرة حدثت كنت أستغربها، لكن مع الوقت اعتدتها منه وفكرت أن الله أعطاني هدية منه لكثرة صبري على ما كان يحدث من زوجي وأهله بعد خلفة البنات ولكن قل لي ماذا حدث؟

-هو فعلا هدية، ولكن أظنه أكثر من بشر مثلنا. بالأمس عندما تحدثنا عن الله وجهه شعَّ نورا كالذي وصفتيه، واليوم عندما تحدثنا عن الملائكة، غضب عندما قلت إن إبليس كان ملاكًا، وفي نهاية الدرس كذب، لذلك هو غاضب لأنه يعلم أنه كذب.

-لا أفهم ماذا تقصد بكل هذا!

-ما أود قوله إن صبري شيء أكثر من كونه بشرًا.

-إذن ماذا يكون؟

-ربما ملاكًا.

تندهش الأم ناظرة إلى الأستاذ فضل قائلة:

-كيف يكون ملاكًا يا أستاذ، ابني من لحم ودم!

-ربما ملاكًا متجسدًا.

-ماذا تقول؟ لا أفهم، تقصد أنه ملاك من السماء؟ وكيف ببشر يلد ملاكًا؟

-لا أعرف يا أم صبري، ولكن صبري ليس بشرًا.

-أستاذ فضل أنت تهول الأمر، صبري ابني حسن الخلق ووهبه الله العقل والحكمة لا أكثر، كثير من البشر هكذا، صبري هديتي من الله.

نظر إليها الأستاذ فضل وهي تنهي حديثها باستعجال وكأنها تستنكر في حين أنه يعلم أنها تصدقه فقالت له:

-سأنصرف الآن وأرجوك لا تضايقه مرة أخرى؛ هو طفل حساس جدا.

-عندما أتأكد من أمور كثيرة سيبقى لنا حديث آخر يا أم صبري.

-إن شاء الله.. السلام عليكم.

-وعليكم السلام.

تخرج أم صبري وقدماها لا تستطيعان أن تحملاها، قلبها منقبض، تخرج بعد

حديث الأستاذ فضل الذي أكد لها هي أيضا شعورها واستنكرت أمامه حتى لا تضع ابنها في مأزق ألا يعيش عيشة غير طبيعية.

وصلت إلى بيتها وجلست على الأريكة، تربط الأحداث ببعض، ما حدث معها طوال السبع سنوات وما كانت تشعر به، وما قاله الأستاذ فضل. الأم هي التي تستطيع الإحساس بطفلها أكثر من أي أحد آخر، تفكر قائلة:

-هل يعقل أن يكون ابني ملكًا من الملائكة؟

يدخل صبري البيت فيجد أمه في انتظاره، تنظر إليه مبتسمة فيقترب منها ويقبل جبينها معتذرا قائلا:

-آسف أمي.

-لا تأسف يا ملاكي الجميل.

ينظر إلى عينها مستنكرا قائلا:

-لست بملاك يا أمي، فالملائكة لا تكذب ولا تنهر أمها، واليوم عصيت

الله الذي أحبه أكثر من أي شيء.

-الله خلق المعصية وخلق لها الاستغفار.. قال "استغفروا ربكم إنه كان غفارا" الله غفور رحيم يا بني، وأنا لم أغضب أو أحزن حتى يكتب لك ذنبًا.

-ولكن أيضا كذبت.

-قل لي فيمَ كذبت حتى أرى إن كانت ذنبًا أم لا، لربما تؤنب نفسك ولا يكون هناك ذنب!

-بل أذنبت يا أمي وذنبي أنا لن يغتفر..

-لم تقول هذا؟

-ألم تقولي إنني ملاك؟ الملائكة لا تعصي وأنا عصيت وأظن أنني سأعصي كثيرا.

تحنوا عليه فتربت على كتفه قائلة:

-بني، أنت تحمل نفسك كثيرًا، الله غفور رحيم، فقط استغفره.

-أستغفر الله العظيم، أين أبي؟

-لم يأتِ بعد، ولذلك أود أن أتحدث معك..

-عن ماذا؟

وهنا يدخل الأب فيراه صبري، فيقف ويتقدم نحوه قائلا:

-أبي أود أن أذهب معك إلى القاهرة غدا.

-ولكن يا بني غدا سأذهب إلى القاهرة، سأرى العمل وأبحث عن بيت ويجب أن تظل أنت هنا مع أمك وأخواتك إلى أن آتي وآخذكم.

تتساقط دموع صبري على وجنتيه قائلا:

-لا، أود أن آتي معك من الغد أرجوك، لم أعد أحتمل التواجد هنا.

-لمَ بني؟ ماذا حدث؟

-لا شيء، سأذهب معك في الغد.

يربت على كتفه قائلا:

-حسنا سنذهب غدا، ثم نعود لنأخذ أخواتك ووالدتك.

تظل الأم صامتة تنظر لابنها الذي تشعر بوجعه.

*****

ظهر أسمر أمام إبليس الذي بات يتشوق لمعرفة الأحداث، وعند ظهوره قال:

-أظن أن الطبيعة البشرية بدأت تغلب على صبرائيل.

-لا أظن ذلك، فذلك من الملائكة.

-اليوم كذب..

-كذب؟

أخذ أسمر يروي لإبليس ما حدث، والذي يظهر اهتمامه الشديد لحديث أسمر، أصبح صبرائيل الآن هو الشاغل الأساسي لإبليس، وعندما انتهى أسمر من الحديث رد إبليس قائلا:

-لنسلط عليه البشر الذي أَحَبهم ليكونوا ابتلاء تجربته وليُنبذ في السماء والأرض.

*****

في اليوم التالي بعد العشاء، الأستاذ فضل ينتظر مجيء صبري، وبعد أن طال انتظاره ولم يأتِ قام وذهب إلى بيت صبري ففتحت له أم صبري قائلا:

-السلام عليكم، أهلا أم صبري.. قلقت لأن صبري إلى الآن لم يأتِ.. خير؟

-عليكم السلام.. صبري قد ذهب مع والده إلى القاهرة.

رد الأستاذ فضل مستنكرا:

-القاهرة؟ لم؟

-يونس استلم عملًا هناك وسننتقل جميعا إلى هناك.

ظهرت علامات الضيق واضحة على وجه الأستاذ فضل قائلا:

-لماذا ستنتقلون؟ وكيف سيبعد صبري عنا؟ أنا اعتدت وجوده وأحبه، كنت أود أن أتعلم منه كثيرًا.

-أتعلمه أم يعلمك؟

-هو من سيعلمنا.

-كيف لطفل أن يعلمك؟

-أنت تعلمين أنه ليس طفلًا

-أستاذ فضل، اطرد تلك الأفكار من رأسك، بني من الأمس مستاء كثيرا حتى طلب من أبيه الرحيل معه؛ أرجوك اتركه.

-أرجوكِ، أنا أحبه كثيرا كما لو أنه ابني وربما أكثر.. أنا فقط أفكر كثيرا وكنا نتناقش سويا ولم أقصد إزعاجه.

يستاء الأستاذ فضل متمتما بكلمات ليست مفهومة عائدا إلى بيته. وتغلق الأم بيتها في حزن شديد، تجلس على سريرها مهمومة واضعة يدها على قلبها، فأول مرة صبري بعيد عنها تشعر أنها تفتقده بشدة.

*****

في القاهرة يمشي صبري بجانب والده بملامح جامدة، إلى أن يصلا عمارة في وسط القاهرة، يستقبلهم العم سعيد ويدخلون إلى شقة صغيرة بجوار السلم ويرحب بهم قائلا:

-أهلا بكم. المكان ضيق ولكن مؤقتا حتى تستقروا.

ينظر صبري إلى الشقة التي تتكون من غرفتين وصالة صغيرة ومطبخ وحمام، وأثاثها القديم جدا لا ينبس ببنت شفة، بل ملامحه تدل على جمود غريب، وكأنه بلا شعور، ينظر إليه أبوه قائلا:

-هل أعجبك المكان بني؟

رد صبري بالملامح نفسها:

-نعم يا أبي، المكان جيد، ولكن متى ستأتي أمي وأخواتي؟

-ربما بعد يومين.

رد العم سعيد قائلا:

-لا تستعجل الآن، رتب أمورك واستقر، وكوّن بعض النقود، فالحياة هنا غالية بعض الشيء، وأيضا دع أولادك ينهون دراستهم هذا الترم.

قاطعه صبري قائلا:

-لا، أنا أريد أمي وأخواتي أن يأتوا إلى هنا، ولا نستطيع تركهم هناك لأني لن أعود.

-ولكن يا بني أنتم لم تستقروا بعد.

رد يونس قائلا:

-صبري معه حق، لا نستطيع تركهم هناك بلا رجل، سأعود لآتي بهم ونتحمل هذه الفترة إلى أن تنصلح الأمور.

يمد العم سعيد يده في جيبه ويخرج لفة من النقود قائلا:

-إذن خذ هذه، ستحتاج بعض المال لمسايرة أمورك مع عائلتك الفترة القادمة.

يعيد يونس يد عم سعيد قائلا:

-لا، الحمد لله معي ما يكفي.

لكن العم سعيد يصمم قائلا:

-هذا المال من حسابك القادم، ولا تردني.

يأخذ يونس المال، ويضعه في جيبه مبتسما متفائلا بأمل جديد في الحياة.

*****

المراهقة

تنتقل العائلة إلى القاهرة لبدء حياة جديدة، وانتقل صبري إلى عالم فسيح أكبر من القرية التي يعرف جميع من بها. أتى إلى القاهرة، إلى المدينة الفاتنة. تمر السنوات، يعمل فيها يونس عاملًا همُّه تعليم أولاده، تغيرت أحوالهم إلى الأفضل قليلا، وأكمل صبري سن الثالثة عشر، محبوب من كل من رآه ولا أعداء له. عاش مشاعر وتجارب كثيرة كانت بين الرضا والسخط، كان متميزا في دراسته، ولكنه كلما كبر كان يشعر بفقدانه هويته كملاك وبثقل الوقت فقد مل كونه بشرًا. في الثالثة عشر، يشعر صبري بتغيرات جسدية، بينما يتحمم ينظر إلى جسده الذي بدأ يشتد وبعض الشعيرات التي بدأت الظهور في أنحاء متفرقة في جسده، وأيضا عضوه الذي بات أكبر من ذي قبل، في تلك الأثناء يتذكر الأمس، بينما هو نائم فيستيقظ فجأة ليجد عضوه الذكري منتصبًا، يفزع فتلك أول مرة يحدث ذلك، ويحاول أن يرجعه كما كان، يتصبب عرقا وأيضا خوفا، تتضارب أفكاره ويشعر أنه يحتاج لشيء ما، يغمض عينيه، بينما يشعر بوخزة في معدته، ولذة في ذلك الشعور الذي لا يدركه في ذلك الألم، وذلك الاحتياج، كل تلك المشاعر التي تنتابه دفعة واحدة تشتته، يفكر سريعا أن ربما تلك مرحلة البلوغ عند الرجل، ولكن ما تلك المشاعر؟ وكيف يكون في ذلك الألم لذة، ثم كيف ينتهي وكيف يُخمد تلك النيران التي اشتعلت به. يرفع رأسه قائلا: رباه ما الذي يحدث؟

*****

اشتد عود صبري الذي بدأت تظهر ملامحه كشاب في الثامنة عشر، وسيم جدا، وخلوق محبوب من جميع الناس، ويحترمه الكبير قبل الصغير، كبر ليصبح حلم فتيات جيرانه ومدرسته، الشاب الهادئ الرزين.

يدخل بيته لتجري أخواته البنات إليه يستقبلنه، تبتسم له الأم، يقبل يديها ويسألها عن حالها، تمسك خده وتجيب أنها الآن بخير، بعد أن يطمئن على أخواته، يسأل عن والده الذي لم يعد من عمله، فتجيب أنه لم يأتِ من العمل إلى الآن، بعد فترة من الوقت يدق الباب، فيفتح صبري، فإذ بالعم "سعيد" يخبره أنه حدث حادث لأبيه وهو الآن في المستشفى، يهرول صبري مع العم سعيد إلى المستشفى ليرى والده. يدخل غرفة والده الذي كان يتألم بشدة قائلا:

-أبي ماذا حدث؟

-لا شيء يا بني أنا بخير لا تقلق.

ينظر صبري للعم سعيد متسائلا ماذا حدث؟

يرد سعيد في أسىً:

-كنا في العمل ونحمل ثلاجة لنوصلها للدور السادس في العمارة، ولكن أحد الرجال أفلت الثلاجة فزاد الحمل على ظهر أبيك، فانزلق بها وأتينا به إلى هنا، ولكن أنا آسف يا بني؛ الأطباء قالوا إنه أصيب بشلل نصفي، فلن

يستطيع الحركة بعد الآن. أنا آسف.

شعر بأسى في حين تدخل أمي وأخواتي يتماسكن بالأيدي وينهرن بالبكاء عند رؤية أبينا، خرجت لرؤية الأطباء فأخبروني بحالة أبي. أعلم أنه لن يستطيع المشي مرة أخرى، وهنا أصبحت أنا المراهق مسئولًا عن أبي وعائلتي.

*****

ظهر أسمر أمام إبليس ليجد عنده مجموعة من الشياطين، فوجد شيطانًا آخر يتحدث:

-لقد استطعت أن أوسوس للفتى أن يرد على هاتفه في أثناء حمل الثلاجة فانزلقت بيونس والد صبرائيل، وقد أحدثت له شللا نصفيًّا.

رد إبليس قائلا:

-عظيم!

-إن لم نسطع الوصول لصبرائيل، فنستطيع الوصول لمن حوله، أريد أن نضيق عليه جميع السبل، أود أن يلعن البشر وحياتهم، أود أن يذوق اليأس والبأس الذي يعيشه جميع البشر، فمنذ صغره وقد باتت تغلب عليه طبيعتهم، فأصبح رويدا رويدا ينسى كونه ملاكًا.

-نفعل ذلك بالفعل ولكن تواجهنا مشكلة أن عائلته صالحه، جميعهم يصلون ويشكرون الله كثيرا ودائمي ذكر الله في بيتهم.

-وذلك ما أوده أن يتغير، أن نلوث أفكارهم ونزعزع إيمانهم، بعد أن فقد عمله وبات عبئا في البيت سيشعر باليأس والانزعاج.

*****

في بيتهم الضيق تجلس الأم متشحة بالسواد واضعة يدها على خدها وكأنها تبلغ السبعين من العمر، يأتي صبري يجلس بجوارها ممسكا يدها قائلا:

-السيدة الفاتنة التي نال الحزن من وجهها ما ناله! سيدتي الجميلة التي لا أحب أن أراها هكذا مهما حدث.

تبتسم في ضيق ناظرة إليه وتقول:

-لا أستطيع التفكير، فكيف أراه هكذا طول العمر لا يستطيع الحراك ثم ماذا سنفعل؟ كيف سنعيش!

-هذا ما يشغل بالك الآن؟ لا تقلقي يا أمي أنا رجل وتستطيعين الاعتماد عليّ.

-أنت ما زلت طفلًا فماذا ستفعل؟

يضحك مستنكرا قائلا:

-طفل؟ أنا رجل يا أمي ألا ترين طولي!

-ستظل طفلًا في نظري، لا أريد أن يترك دراسته ليتحمل مسئوليتنا جميعا، ذلك حمل صعب.

-أبي لم يدللني، أبي جعلني رجلًا في طفولتي وأخرجني للعمل معه، فذلك ليس بجديد، ثم إني لن أترك دراستي، سأعمل بجانب الدراسة.

-نعم، وكأنه يتوقع ما سيحدث.

يرد في عصبيه:

-لا يوجد شيء اسمه يتوقع، ولا أحد يعلم الغيب إلا الله.

-أنا أقول توقع ولا أقول إنه يعلم الغيب.

- اتركينا من كل ذلك، كل ما أوده الآن أن تعتنوا به جيدا وأن تبتسموا دائما، أما الباقي فاتركيه لي.

ربت على يدها مبتسما وقام، في حين أنها في مكانها تفكر فيما سيحدث غدا.

*****

خرج صبري من بيته متجها إلى بيت العم سعيد الذي حينما رآه استقبله بفرحة.

جلس صبري إلى جواره قائلا:

-أود أن أحل محل أبي في العمل.

ابتسم العم سعيد قائلا:

-كنت أعلم أنك رجل، وستطلب ذلك الطلب، ولكن يا بني ما لا تعرفه أنني قررت أنك وأهل بيتك مسئولون مني، فأبوك كان يعمل لدي وأنا أعرف الله وذلك حقكم.. أنتم مسئولون مني إلى ان تكبروا وتتزوجوا.

-وما ذنبك أنت لتتحمل مسئوليتنا.. أنت لست جهة حكومية لتعطينا معاشًا، ذلك عمل خاص.. شكرا لك، ولكن كل ما أريده أن أحل محل أبي حتى أكمل دراستي وبعدها أجد عملًا آخر.

-بني أرجوك.

-أرجوك أنت يا عم سعيد، أهل بيتي مسئوليتي أنا وإن كنت تريد حقا المساعدة فاجعلني أحل محل أبي.

يصمت العم سعيد قليلا ثم يومئ برأسه موافقًا.

يبتسم صبري ويستأذنه في المغادرة فلا يوافق إلا بعد إلحاح صبري ليغادر.

*****

يعود صبري إلى البيت ليخبر أباه وأمه أنه من الغد بعد الدراسة سوف يعمل مع العم سعيد مكان أبيه.

يستنكران ذلك في البداية، ولكنه يصمم على رأيه، الأب يبكي قلة حيلته قائلا:

-لِمَ يا الله؟ لِمَ فعلت بي ذلك؟

تستنكر الأم ما قاله فتقول له:

-استغفر يا يونس تلك إرادة الله فهل ستعترض؟

- أستغفر الله العظيم اللهم لا اعتراض على حكمك..

ثم ينظر إلى صبري الذي ظل جامدا في مكانه قائلا:

-آسف يا بني، إنني وضعتك في ذلك الوضع ولكنك تعلم أنه ليس بيدي.

ظل صبري ينظر إلى والده بملامح باردة، ثم خرج تاركا البيت يمشي، إلى أن يجلس على كرسي خشبي تحت شجرة، يفكر في حديث والده، كان حديثه إجابة لسؤال ظل يفكر فيه كثيرا، لِمَ الله يحب البشر أكثر؟

يأخذ الله منهم النعمة فيغضبون، ثم يستغفرون ويتوبون، فيحمدون ويشكرون.

-كيف حال أخينا البشري؟

يأتيه حديث روفائيل في عقله فيرد قائلا:

-أحمد الله، وكيف أنتم اشتقت إليكم جميعا، اشتقت إلى السماء.

-أنت تعرف كيف حالنا، فنحن بجوار الله.

-نعم، أعرف، كل البشر هنا يتمنون أن يدخلوا في رحمة الله ويتمنون الوجود بالقرب. إلا أنا، كنت في رحمته وخرجت منها.

-صديقي، أنت لم تخرج منها، أنت أردت التجربة، والله منحك إياها، والآن أنت في المكان الذي أردته لتعرف الإجابة عن جميع أسئلتك.

-نعم، واليوم منحني الإجابة، لمَ يحبهم أكثر. لأنهم يحمدونه ويشكرونه على الرغم من الابتلاء.. هل تعلم يا صديقي، معرفة البشر ورؤيتهم تختلف تماما عن كونك بشرًا.

-ماذا تقصد؟

-عندما كنت ملاكًا، كنت أراهم وأشاهد ماذا يفعلون وردود أفعالهم وأظل أفكر لمَ حدث ذلك ولمَ كان الرد عليه هكذا، وأظل أفسر كل شيء بدقة، وأنت ملاك أو من جنس آخر لا تستطيع الحكم على أفعالهم أو الردود عليها، ستشعر بها فقط إن كنت بشرًا. والآن على الرغم من معاناتهم وما يعيشونه في الأرض، أقول لك إنه يجب أن يحبهم الله كثيرا.

-في كل مرة أراك بحال غير الذي ذي قبل.

-نعم يا صديقي، هنا كل شيء يتغير بسرعة، يملكون الوقت ويملكون التغيير والاختيار ولا يسيرون على وتيرة واحدة، أما جنسنا كملائكة فلا شيء يتغير، الطاعة فقط.

-يكفينا القرب من الله.

-نعم، يكفي، ولكن الله يحبهم أكثر وأنا هنا بدأت أفهم لمَ يحبهم أكثر وأظن أن الله وضعني في اختبار من اليوم لأعرف الإجابة.

-أرجوا أن تجد جميع الأجوبة دون أن تخسر شيئا يا صديقي.

-الله وضعني هنا لأعرف وأتعلم، وأظن أنه يجب أن أخطئ لأتعلم الصحيح.

-ولكنك ملاك وتعرف الخطأ من الصواب.

-أعرف، ولكن الآن بي طبيعة بشرية، وهنا لا أحد معصوم من الخطأ، إلا الأنبياء، أما باقي البشر فطبيعتهم يخطئون، وإن لم أخطئ مثلهم، سيشكون مثلما شك الأستاذ فضل قديما.

-ولكنك حينما كذبت قبلا انهرت وأردت الرجوع إلى السماء.

-أنا لن أكذب، الأخطاء ستكون بسيطة، يجب أن أتعايش مع طبيعتهم.

-كنت أود أن أذكرك أن الآن كما البشر لديك العدو الأول. فإبليس وأعوانه يعملون جاهدين.

-أعلم ذلك، فأنا أعرف أنه يراقبني دائما، كنت أشعر بذلك ولكنه لا يستطيع التأثير أو الاقتراب مني.

-نعم، ولكن ربما لديه وسائل أخرى.

*****

يخرج صبري للدراسة ثم إلى العمل، وكل يوم يتعلم شيئًا عن اليوم الذي قبله، ويدرك أشياء أخرى لم يدركها كملاك عن البشر، يختبر كل يوم بشيء جديد، ويقابله بالصبر والحكمة، بات هو المسئول عن عائلته، خمس فتيات في سن الزواج، وأب مريض وأم، لم يعلم صبري أن حياته كبشري ستبقى بكل تلك المشقة والتعب، فالملائكة لا يشعرون أيضا بالتعب، الملائكة لا تتعب أجسادهم ولا يحتاجون للراحة أما كبشري، فعقب كل انتهاء يوم شاق يشعر بذلك الجسد الثقيل الذي يحتاج للراحة. صبرائيل الذي تمرد على كونه ملاكًا أراد تجربة الحياة البشرية وها هو يعيشها بكل مشاعرها وتعبها وبؤسها، كثيرا ما يحب تجربته وأحيانا كثيرة ما يندم. شعور الندم الذي بات يلاحقه كثيرا. أراد تجربة المشاعر البشرية كالضحك والحزن والحب، ولكنه لم يعلم أن المشاعر كثيرة ومنها أيضا كثير من المشاعر السلبية المجهدة، نعم، مشاهدة الحياة البشرية تختلف كثيرا عن تجربتها كبشري.. ويبقى مزيدٌ.

أكمل دراسته الثانوية وتخرج بأعلى الدرجات، فكّر كثيرا أنه ربما يصبح طبيبًا أو سفيرًا، ولكنه أراد أن ينشر العدل، فقرر أن يكمل دراسته في كلية الحقوق على الرغم من درجاته العالية.

استطاع صبري في ثلاث سنوات أن ينجح في دراسته بالترتيب الأول على دفعته، واستطاع أيضا أن يزوّج اثنتين من أخواته البنات، كان يعمل بعد دراسته، وثم في الإجازة يعمل فترتين، أما باقي أخواته، فقد تخرجن في كلية الطب والهندسة، أما عن أصدقائه، أصبح له كثير من الأصدقاء في العمل والجامعة، ولكن كان الأقرب له صديقه "شادي" الطالب في كلية الهندسة، والذي يلازمه دائما، فكان قريبا منه بعض الشيء في الصفات طيب القلب وخجول، مر الوقت معا.

*****

مرحلة الشباب

أصبح صبري شابا فباتت ترغب فيه النساء لوسامته ولطفه، فكان لا يقبل ويغض البصر دائما، وهنا بين البشر الممنوع مرغوب، فكلما تمتنع عنهن كانت تزيد رغبتهن أكثر. ففي البيت الذي يسكن فيه في الطابق الثالث تسكن امرأة حسناء تدعى "سمر".

" وفتنة الجنس"

(وحين أراه..
كأنه الربيع مقبل
وأظل أفكر.. كيف يا ربي أتقنت صنعه؟
حتى تراه الشمس فتزوي خجلا.)

"سمر" التي تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما، والتي حملها أهلها على الزواج من رجل مسن وبعد أن توفي ورثته وأرادت أن تعيش حريتها دون قيد.

عندما رأت صبري وهي تصعد الدرج وكأنها تراه للمرة الأولى، يقول لها "أسمر" ولمَ لا؟ فسنوات شبابك الأولي كانت مع رجل مسن، وذلك الشاب وسيم ويعيش معك في المكان نفسه، لمْ يتركها إلا وهي مسحورة بصبري. تأخذ أيامًا تستقصي عنه كل من يعرفه، تعرف أنه خدوم ولا يرد شخصا، يطلب منه خدمة أو معروفًا وبينما هي تنتظر عودته وهي في شرفتها عندما تراه آتٍ من بعيد في وقت المغيب تنظر إليه بشغف، تنزل إلى الدور الأرضي تراه قبل أن يدخل شقته، ترد عليه السلام وتستأذنه أن يصعد معها ليصلح لها صنبور الماء الذي انكسر فأغرق بيتها، لم يجرب قبلا ألاعيب النساء وكيدهن، لم يعرف المرأة أصلا أو حتى يعلم أنها تسكن الطابق الثالث، ولم يأتِ في باله أنها تسكن بمفردها، صعد معها إلى شقتها ودخل دون أن يرفع عينيه، وقفت عند الباب خلفه وأغلقت الباب، ثم قادته إلى الداخل وهو خلفها منكسٌ رأسه غاضٌّ بصره ولم

يرَ وجه المرأة جيدا إلى أن دخل المطبخ ليرى الصنبور الذي تريد إصلاحه، يفتح ويغلق فيه فإذا به يعمل وإذا بيدها تمسك كتفه قائلة:

-هههه حيلة عطل الصنبور دخلت عليك..

تسري قشعريرة في جسد صبري كله، انتفض بمجرد أن أمسكت كتفه وابتعد عنها قائلا:

- ماذا تقصدين؟

ضحكت من رد فعله الغريب قائلة:

-أقصد أنها حيلة، فأنت رأيت أنه يعمل، ولكن لمَ ترتعش هكذا؟ هل أول مرة تتعامل مع امرأة؟

نظر إليها صبري جيدا لأول مرة، فوجدها جميلة كأنها من نسل قوقازي، شعرها الأشقر المسدل في تموج، وعيناها الزرقاء كبحر فاقع لونه، يحدوهما رمشان طويلان. ينزل ببصره على الأنف الصغير، ثم شفتين متناسقتين ورديتين، صعد مرة أخرى بعينيه فأطال النظر إلى عينيها في حين أن نظرته إليها أذابتها أكثر، شعر بالخجل من نفسه لنظره إليها هكذا، ولكنها بالفعل جميلة، لم يعلم بماذا يرد، ظل صامتا في حين همّ بالرحيل خارجا، فقامت مرة أخرى بإمساكه من يده، سرت قشعريرة أخرى به، ارتبك قائلا:

-سيدتي أرجوكِ لا تفعلي هكذا، أين زوجك؟ أين عائلتك؟ ألا يوجد أحد آخر بالبيت!

-أنا أعيش هنا بمفردي ألا تعرف؟

رد مستنكرا:

-لا، لا أعرف، ولو أعرف لما صعدت معك، أنا لا أعرف أنك تعيشين معنا في البيت أصلا ولم أنتبه إليك قبلا.

-كيف ذلك؟ أنا مررت كثيرا أمامك قبلا!

-لم أركِ

تمسك يده قائلة:

-حسنا، والآن رأيتني ألا أعجبك؟

-سيدتي أرجوكِ دعيني أرحل.

-حسنا سأدعك ترحل ولكن بعد أن نتحدث قليلا، أود الحديث معك.

ينتابه الخجل حتى يكاد وجهه ينفجر نارا قائلا:

-لا أود الحديث أرجوك.

-إذن لن ترحل.

أمسك يدها بيده الأخرى ليبعدها عنه، حينها تذكر قصة زليخة مع النبي يوسف الذي راودته عن نفسه، هو الآن في الموقف نفسه، لكنه لا يعلم ما سيحدث، ظل يرد اللهم اعصمني من كيدهن كما عصمت يوسف، اللهم اعصمني من أن أخطئ وأنا ضعيف لا حيلة لي يا إلهي لا تبتلني بهذه الخطيئة،

هذا الاختبار بالذات لا أريده، لا أريد أن أمر به. اتجه إلى الباب فوجده موصدا بإحكام وسمع صوتها من الخلف قائلة:

-لن تستطيع الخروج ولن تستطيع فتح الباب لقد أوصدته جيدا، عد إلى الداخل لنتحدث.

شعر بغضب وعاد إليها قائلا:

-اسمعي أيتها المرأة، لن أظل هنا ثانية واحدة، ولن أتحدث معكِ، ليس هناك ما نتحدث بشأنه فدعيني أرحل في س..

في غفلة، وجدها اقتربت فجأة وقبلته، شعر بشفتيها الدافئتين على شفاهه الباردة، شعر بالدفء مرة واحدة، شعر بيدها تحتضنه وبجسدها يلتصق بجسده، لم يملك من الأمر شيئا. لم يمر قبلا بشيء مع النساء، حتى وهو بشري كل ما مر به نظرات الفتيات إليه، فيغض بصره، كثير منهن حاولن ملاطفته أو الحديث معه، ولكنه لم يتخيل أن يحدث معه شيء مماثل. كجسد رجل بشري شعر في بعض الأحيان بشعور الشهوة في بادئ الأمر، لم يفهم لمَ يشعر بذلك؟ لمَ يحتاج إلى امرأة؟ ولكنه لم يبدِ للأمر اهتمامًا، فلم يجرب الحب قبلا، ولم يفكر ما طعم النساء، ما طعم شفاههن، ما طعم الحديث معهن وما شعور الحب. أهو كحب أمه وأخواته الفتيات؟ أم هو مختلف. ثلاثة وعشرون عاما كذكر، وأكثر من سبع سنوات كرجل لم يفكر في النساء ولم يخطر بباله فتنة النساء، وأنه سيمر باختبار مماثل، فبعض الفتن يستطيع مواجهتها والمثول أمامها، أما تلك فلم

يفكر كيف سيتعامل معها، انتبه أنها تحتضنه، وأن جسده أصبح كالبركان بين ذراعيها.

-تلك خطيئة يا صبرائيل.

أتاه صوت روفائيل في عقله، نهرها من بين يده قائلا:

-ماذا تفعلين؟

ظلت تنظر إليه قائلة:

-ألا يعجبك الأمر؟

ارتبك قائلا:

-ألا تخافين الله؟ إنه هنا معنا إنه يرانا!

ردت مستنكرة:

-الله؟

-نعم الله، ألا تحبينه؟

-بلى أحبه، ولكن ما دخل الله في تلك اللحظة؟

-ما تفعلينه خطيئة.. الله أمرنا ألا نفعل ذلك.

قرر حينها أن يتحدث معها، فدخل إلى الصالة وجلس على كرسي، ظلت هي جامدة في مكانها بعد حديثه عاد ليجدها جامدة في مكانها فقال:

-ألا تريدين الحديث؟ تعالي لنتحدث.

ذهبت معه مطيعة ثم جلسا متقاربين. نظر إليها قائلا:

-عندما صعد "محمد" عليه الصلاة والسلام إلى السماء ورأى النار، فوجد أكثرها نساء، هل تعلمين لماذا؟

ظلت صامته تنظر إليه فأكمل حديثه قائلا:

-لأنكن لا تتحكمن برغباتكن، عندما تردن شيئًا تفعلنه دون النظر إلى العواقب، الآن أنتِ ترغبين فيّ، رغبتك لم تدعك تفكرين في عاقبة الفعل، وما سينتج عنه ما ترغبين به خطيئة ومن الكبائر التي تهز السماوات، أنتِ امرأة جميلة وذكية، ولكن الله منحك ذلك فتنة لك ولكل الرجال الذين يرونك. بعض المنح تكون نقمة دون أن نعلم.

أنا لن أعصي الله لأجلك، لأنني أحبه حبا جما، إنه معنا دائما يراني ويراكِ، كيف نفعل ذلك أمامه؟ كيف نجهر بفعلنا أمامه؟ وكأننا نقول له أنا أعصي أمرك كما فعل إبليس.

يظل صبري يتحدث وتظل هي صامتة لا تملك إلا أن تبكي ثم تبكي، ينتابه الحزن فيضع يده على رأسه حينها، تشعر بشيء يجعلها تزيد من بكائها حتى أجهشت فقال:

-لا تحزني أرجوك، أنا لا أود أن أكون سببا لتعاسة أحد وخاصة امرأة.. أنت امرأة ناضجة وتعين ما أقول، هل تعلمين أن الله يحبك؟

تنظر إليه وتجهش بالبكاء قائلة:

-لا.

يبتسم قائلا:

-بلى.. هو يحبك؟ لأننا لم نكمل الخطيئة.

-لا يحبني، لو يحبني لم أكن لأخطئ قبلا، لقد أخطأت كثيرا.

-العبرة ليست بالماضي، مادام أنه أتى وقتٌ وعصمنا فيه.. توبي إليه وسيقبل، فأبوابه لا تغلق أبدا أمام التوابين.

زاد نحيبها، فكر أن تلك الدموع دموع الندم والتوبة، وقف بجانبها مادا يده إليها قائلا:

-والآن اعطني المفتاح لأرحل.

مدت يدها إليه بالمفتاح فابتسم لها، فقالت له وهي تجهش بالبكاء:

-هل سأراك مرة أخرى؟ أود الحديث معك أكثر، أود أن أعلم إن كان الله يحبني أم لا؟

-إلى الآن لم تعرفي إن كان يحبك أم لا؟

-طوال حياتي ضائعة ولم أعرفه، وكنت أظن أنه لا يعرفني، أنت وضعتني على أول الطريق وأود أن أكمله أرجوك.

-عندما تريدين التحدث تعالي إلى البيت ولنتحدث.

قالها ثم انصرف تاركها غارقة في صراع مع نفسها.

*****

تسأل الأم «....» عن صبري فتخبرها ابنتها أنها رأته آتٍ ولكنه لم يدخل البيت، ولا أعرف أين ذهب، حينها يدخل صبري متصببًا عرقا مرتبكا يرد عليهم السلام، فترى الأم أن ابنها وجهه متغير، تقترب منه فيقبّل يدها كعادته فتسأله قائلة:

-بني ماذا بك؟

يرد بابتسامة أخرجها على الرغم من ارتباكه قائلا:

-كيف حالك أماه؟ وكيف حال أبي؟

-نحن بخير، وأنت كيف حالك؟ ولمَ أنت متصبب عرقا، ماذا بك؟

-لا شيء سوى أنني مجهد وأود الاختلاء بنفسي بعض الوقت.

-قل لي أين كنت؟ أختك قالت إنها رأتك آتٍ ولكنك لم تدخل البيت!

-أحدهم طلب مني خدمة فأديتها، جئت لأطمئنك أنني أنهيت عملي وبخير، والآن سأخرج لبعض الوقت.

-ألن تأكل؟ نحن ننتظرك!

-ليس الآن، عندما أعود سآكل، كلي أنتِ وأخواتي.

قالها وهو يخرج من الباب يذهب إلى النيل، يجلس وحيدا كعادته حينما يريد التفكير في أمر ما، ذلك الاختبار الجديد الذي لم يكن يتوقعه وتلك الفتنة التي لم تخطر على باله حتى عندما كان ملاكا وأراد تجربة المشاعر البشرية، لم يخطر على باله النساء، لم يخطط كيف سيتعامل إن وُضع في تجربة مع أنثى، وما المشاعر التي

من الممكن أن يشعر بها؟ تتسابق المشاهد التي حدثت مع "سمر" إلى رأسه دفعة واحدة، عندما أمسكت كتفه، عندما قبلته.. آه القبلة! يا له من شعور! دفء شفتيها وجسدها. يحاول أن يفهم ذلك الشعور الجديد ولمَ اختلف ذلك الشعور عن باقي المشاعر؟ لم حدثت معه تغيرات جسدية؟ لمَ أحسَّ أن جسده شعلة نار؟ وأن عضوه الذكري انتصب رغما عنه، ولم يستطع التحكم به، لمَ شعر أنه يرغب في مزيد؟ تذكر قبلا في بداية المراهقة عندما حدث معه الشيء نفسه في أثناء نومه؟ نعم، لم يفكر قبلا في ممارسة الجنس والزواج والإنجاب. ظن أنه ربما جرب كل المشاعر البشرية، ولكن الآن يفكر أن هناك مزيدًا من المشاعر. ظن أن كل الوقت الذي مر عليه كبشري كافٍ، والآن يفكر أن هناك مزيدًا حتى الشيخوخة، وحتى لحظة موتة شعور سيجربه يوما ما.

*****

في اليوم التالي، قابل شادي فقال له إنه يود الحديث معه عن أمر مهم، سار معه شادي إلى مكان هادئ داخل الحرم الجامعي، جلسا وقال له:

-كلي آذان صاغية؛ ماذا بك؟

-أود أن أعرف أمورًا عن النساء.

اندهش شادي ضاحكا وهو يردد:

-نساء؟ أنت تتحدث عن النساء؟ ثم تسألني أنا عن النساء؟ أنت تعلم لا أنا أو أنت لنا معرفة بهن، ولكن لماذا اليوم تريد معرفة أمور عنهن؟

-لا أعرف، ولكن نحن لم نتطرق يوما للحديث عنهن، حتى عندما نجلس مع أصدقائنا وتأتي سيرة النساء، نظل أنا وأنت صامتين وكأن الأمر لا يعنينا.

يرد شادي ضاحكا:

-نعم، وكأننا لسنا رجالًا، ولكن يا صديقي، أنا أفكر بهن، حتى إنني أتوق أن أحب، ولكن ظننت أنك لست مثلنا، فعلى مدى معرفتي بك طوال تلك السنوات، لم أسمعك تتحدث عنهن، على الرغم من أن كثيرًا منهن يطاردك. ولكن لمَ اليوم تود الحديث عنهن؟

-لأجل ما قلت، إنني لا أعرف شيئًا عنهن، ويوما ما سنتزوج وأنا لا أعرف كيف يفكرن أو يشعرن أو ماذا يردن، لا أعرف كيف أتعامل مع إحداهن! لم يحدث أن تعاملت مع إناث إلا مع أمي وأخواتي و..

صمت محاولا عدم ذكر سمر أو الحديث عنها. رد شادي قائلا:

-و.. من؟

-لا أود الحديث عن ذلك.

-ولكني أود أعرف.. هل أحببت؟

رد صبري مستنكرا:

-أحببت؟ لا، لالا، ليس حبًّا، هو فقط موقف تعرضت له بالأمس، ولا أريد الحديث عنه، وكان أول تعامل لي مع أنثى.

-هل اعترفت لك إحداهن بحبها وجها لوجه؟

-لا.

-هل تحرشت بك إحداهن.

ارتبك صبري قائلا:

-لا أود الحديث عمّ حدث. أود أن أعرف فقط عنهن.

ضحك شادي قائلا:

-كثير من النساء تحبك وتطاردك ويتحرشن بك.. وأنت لا تبالي، يا لحظك. أما أنا فلا يحدث معي أي شيء، أتوق للحب أما أنت فتنبذه، ليتهن يتحرشن بي!

ضحك صبري قائلا:

-لم أفكر يوما في النساء، ولا أعرف كيف أتعامل مع إحداهن، ولم يعرف الحب طريقه لقلبي. لا أعرف شيئا، أما أنت فتعرف.

-لا أعرف، نحن نريد من يعلمنا معا عن ماذا تريد النساء.

يردد شادي ضاحكا:

-وأخيرا، سننحرف.

يرد صبري ضاحكا:

-ليس معنى أن أسألك عن النساء أننا سننحرف، أنا فقط أود المعرفة، ولكن بما أنك مثلي، فقد تراجعت عن السؤال فأنا لا أستطيع أن أسأل أحدًا غيرك، أنت الوحيد الذي أستطيع أن أتحدث معه بدون خجل، لذلك انسى.

يظل شادي صامتا بعض الوقت مترددا حتى يقول:

-هل تعلم، أنا تعجبني إحداهن، ولكن لم أبح لأحد، حتى أنت، لأنني ظننت أنك لن تتحدث عنهن يوما ما.

- من هي؟ وبماذا تشعر عندما تراها؟

-صديقة لي لا تعرفها، ولكنها تراني كأخ لها، أما عن ماذا أشعر، فعندما أراها أشعر بأنني أود احتضانها فقط، أشعر أنني أود رؤيتها، والحديث معها لا أريده أن ينتهي، أشعر أنني على طبيعتي.

-وهي؟

-قلت لك مشاعرها تجاهي كأخ وليس حبيبًا.

-هل تظن أنه سيأتي يوم وأنا أيضا أحب؟

يرد شادي ضاحكا:

-طبعا سيأتي يوم، ولكن لا أتخيلك مطلقًا، فسيكون حظها عثِر مع واحد مثلك يشعر بالخجل من ظله.

يضحك صبري معه فهو يعلم أن كلام شادي على حق.

*****

يتخرج صبري في كليته بامتياز، ولكن فرحته لم تكتمل، فيتوجب وجود واسطة حتى يتسنى له أن يتعين معاونَ نيابة، عندما رجع إلى أمه يزفّ إليها خبر نجاحه فرحت الأم كثيرا، ولكنها وجدت وجهه عابثًا فأخبرها أنه نجح بالامتياز وكأنه لم يفعل، فالتعيين يحتاج إلى وسيط، ولكنه لن يقبل إلا بمجهوده، حينها تغيرت أيضا ملامح الأم، وأخبرته أنه ربما لو وجد واسطة ما فسيتم الأمر، فقال إنه لن يقبل، فذلك أخذ رزق غيره، ربما يحتاج الوظيفة إن لم تكن تأتي من الحكومة نفسها، في حينها يرن هاتفه، وإذا بالدكتور "مجدي النقيب" دكتور الجامعة الذي يعرف صبري جيدا يبارك له نجاحه وتفوقه، أخبره صبري بما يحدث فقال له لا تقلق ستعينك الحكومة، أراد الدكتور "مجدي" مساعدته لمعرفة خلق صبري وحبه له فتوسط لتعيينه.

لم يلتحق صبري بالجيش لأنه ولد وحيد بينما التحق شادي به.

قبل صبري وظيفته على مضض على الرغم من أن الدكتور مجدي لم يخبره أنه توسط له، وكأنها أتت من الحكومة وجاء له بيان التعيين وأصبح صبري معاون نيابة.

*****

ذهبت "سمر" إلى بيت صبري ففتح لها الباب فوجد ذلك الوجه المبتسم المتشح بالحجاب فتذكرها قائلا:

-السيدة سمر، أهلا بكِ.

بابتسامة وعياناها المتعلقتان به قالت:

-ألف مبروك، أردت أن آتي وأهنئك بما أني لم أرك من آخر لقاء بيننا.

-ولكني كما أتذكر قلت لك إن أردتِ فلتأتي هنا بين أهلي.

-أردت ذلك ولكن خجلي منك مما فعلت معك منعني.

سمع صوت أمه يقول:

-من على الباب يا صبري.

فتح الباب أكثر قائلا:

-إنها جارتنا السيدة سمر، أتت لتبارك لك يا أماه.

أتت الأم مسرعة من الداخل ترحب بالسيدة قائلة:

-أهلا بك، لمَ ما زلت تقفين على الباب؟ ابتعد يا صبري للسيدة لتدخل.

انتبه صبري أنه مازال يعترض الطريق فقال محرجا:

-آه آسف، تفضلي.

دخلت سمر إلى الصالة مرحبة بها أم صبري، بينما سمر تبتسم في خجل قائلة:

-آسفه أم صبري أنني لم أتعامل معكِ قبلا، ولكني أخشى التعامل مع الجيران، ولكن عندما سمعت بخبر تعيين الأستاذ صبري أتيت للتهنئة وأود لو أن تجعليننني كابنتك.

-نعم حبيبتي، أنت في مقام ابنتي، ولكن قبل حديثنا قولي ماذا ستشربين؟

-لا شيء، شكرا.

-لا، لن يحدث، يجب أن نستضيفك.

-إذن لو تتكرمين بكوب شاي.

تغيب عنهما أم صبري فتعود عينا سمر تتعلق بصبري الذي جلس مبتسما قائلة:

-من آخر حديث بيننا أردت أن آتي إليك لتعلمني بعض الأمور في الدين، ولكنني استحييت منك.

-لم؟ فأنت مثل أخواتي.

نزلت عليها الكلمة كالصاعقة، فكرت كيف يراني كأخواته بينما عشقه يحتل قلبي، قلبي الذي أغرم به حد الجنون، انتبهت له فقالت:

-أنا لست أختك، أنا سمر فقط.

تلعثم صبري من نظراتها وحديثها قائلا:

-أرى أنك ارتديتِ حجابًا!

فرحت أنه أخيرا انتبه فقالت:

-نعم، بعد ما حدث بيننا وحديثك معي ذهبت إلى شيخ علمني بعضَ أمور الدين، ولكنه ترك القاهرة وعاد إلى بلده، وأنا أريد أن أتعلم مزيدًا عن ديني الذي لم أعره اهتماما، قبلك، لم يهتم أحد من أهلي أو أصدقائي أو الوسط الذي أعيش فيه أن يعلمني شيئًا حتى الصلاة، لم أكن أعرف كيفيتها. كنت ضائعة تماما، والآن بعد رحيل ذلك الشيخ أود أن تعلمني أنت فأنا أريد أن أتعلم مزيدًا على يديك..

قاطعتها الأم وهي آتية حاملة صينية الشاي على يدها قائلة:

-وخيرًا من اخترت ليعلمك، هل تعلمين أن صبري حفظ القرآن في سن الثالثة، وتعلم بعدها الصلاة، حتى إن الأستاذ فضل الذي علمه كان يتحاور معه في أمور الدين، وصبري في سن السابعة.

ردت سمر وهي تنظر لصبري:

-أتوقع ذلك يا أمي فصبري أول من جعلني أنتبه أنني مسلمة وأن الله موجود ويحبني.

-نعم، أردت أن أسألك أين تحدثتما؟ فلم يخبرني صبري أنكما التقيتما قبلا.

-كان صنبور المياه لدي لا يعمل، فطلبت مساعدة صبري، وبينما كان يصلحه حدثني عن الله وكأنني أول مرة أسمع عنه، بعدها لجأت إلى شيخ علمني أمورًا كثيرة، ولكنه رحل وأود أن يعلمني صبري.

تنظر الأم إلى صبري مبتسمة قائلة:

-نعم، ما رأيك يا صبري؟

-موافق، لو تأتي إلى هنا وتتعلم ما تشاء.

أومأت سمر بالموافقة قائلة:

-لو تسمح لي أم صبري بذلك.

-نعم حبيبتي؛ البيت بيتك في أي وقت تشائين.

-شكرا لكما.

ابتسمت بينما تهم بالقيام فقالت أم صبري:

-إلى أين؟ لم تشربي قدحك بعد.

-شكرا لك، في وقتٍ آخر.

لم تقبل أم صبري انصرافها دون أن تكمل قدحها.. ثم همت ذاهبة في حين أنها تخبرهما أنها ستأتي بعد يومين لتبدأ الدرس عند صبري.

بعد انصراف سمر يتحول نظر الأم إلى صبري قائلة:

-لم تقل لي قبلا إنك قابلت السيدة سمر!

-وهل يجب أن أقول كل شيء يحدث معي؟

-ولم لا؟ أنت تخبرني بكل شيء، لمَ هذه المقابلة بالذات لم تخبرني بها؟ ثم ماذا حدث بينكما لتخجل أن تلقاك مرة أخرى، أنا سمعت حديثكما!

-أماه! ارتاحي، لم يحدث شيء، السيدة سمر سيدة لطيفة، وقد طلبت مساعدتي قبلا فساعدتها وطلبت مني أن أحدثها عن الدين فقط لا غير.. أما عني فأنت تعرفينني جيدا.

-ولأني أعرفك استغربت حديثكما.. هي امرأة مطلقة، وحديثكما يدل أن شيئًا حدث، لذلك هي تخجل أن تقابلك مرة أخرى.

قال ممتعضا:-أماه كفى.. أنا سأخرج قليلا.

قالها وتركها تنظر إليه، فهي تعلم أنه لن يبوح بأي شيء من الممكن أن يسيء لأي شخص وخاصة إن كانت امرأة.. على الرغم من أن الفضول يقتلها لمعرفة ماذا حدث إلا أنها فرحة بخلق ابنها.

*****

يلتقي صبري بشادي ويدخلان سويا أحد المساجد لصلاة الجمعة، فيجد أن الخطيب يبدأ خطبته عن تارك الصلاة والعبادات، يقول الخطيب إن تارك الصلاة جزاؤه جهنم، فالله شديد العقاب، يجد صبري أن الإمام لا يتحدث إلا عن صفات الله المعاقبة والتي تجعل البشر يفعلون العبادات فقط خوفا من عذاب الله، لم يحتمل صبري فقاطع الخطيب قائلا:

-عفوا، وآسف على المقاطعة، ولكن لمَ تحثهم على العبادات خوفا من عذاب الله وإن لم يفعلوا فجزاؤهم النار، وإن فعلوا فلهم الجنة! لم لا تخبرهم أن يفعلوا عباداتهم حبا في الله وطمعا في قربه؟ هل أنت تصلي خوفا من عذاب الله؟

بينما انتبه جميع من في المسجد، تحشرج صوت الخطيب قائلا:

-من أنت؟ وكيف تقاطعني؟ ثم أنك قاطعتني ولم أكمل حديثي بعد!

قال صبري في حدة:

-مرت نصف ساعة وأنت لم تتحدث إلا عن عقاب الله، ولم تذكر رحمته وحبه وقربه. لم تحدد الله؟ الله أكبر من ذلك، لو أنك تعلم قدره لعلمت أنه يحبنا لأننا صنيعة يده، نعصي ويغفر لنا، يحبنا حبا جما، الله أكبر من كلامك.

-كل ما قلت ذُكر في القرآن.

-نعم، وكما ذكر الله آياته عن العقاب والعذاب ذكر آياته عن المغفرة.

صمت كل منهما في حين وجه أحد المصلين الحديث لصبري قائلا:

-أكمل يا بني، نحن نحتاج مثلك.. أكمل أنت.

التفت صبري لصوت الرجل الذي تحدث، ثم التفت إلى الخطيب قائلا:

-لم أقصد مقاطعتك، ولكنني وددت أن أقول إن الله غفور ومغفرته أكبر من عقابه بكثير، يجب أن يصلي الفرد حبا في الله وليس خوفا منه وخوفا دخول النار.. الله ليس كذلك.

نزل الخطيب من المنبر ودعا صبري إلى أن يصعد ويكمل خطبته، لم يقبل صبري في بادئ الأمر، ولكن ألح عليه الخطيب وكل المصلين حتى صعد صبري يخطب في الناس، وكأنه يضع البلسم على أرواحهم المتعبة، كانت وجوه الناس مبتسمة على غير العادة في خطبة الجمعة، والتي ودّ كثير منهم أن تنتهي سريعا، حدثهم صبري عن عظمة الله ومغفرته وكأنهم لم يسمعوا عنها من قبل أو لم يسمعوا حديثا يحببهم في القرب من الله وكأنه يعرفه ورآه. انتهت الخطبة وعندما نزل صبري من المنبر فوجد كثيرًا منهم يبتسم له ويصافحه حتى الخطيب الذي صافحه وربت على كتفه وأمامه اعترف أن حديثه كالسحر يسحر القلوب، اعتذر منه صبري فرد الخطيب أنه على العكس سعيد أنه سمع خطبته، ويود لو أنه يخطب لهم كل جمعة فسيزداد عدد المصلين.

*****

(في حضرة عينيك
أخاف أن يفضح العشق ملامحي)

كانت المحبة تحيط بصبري من كل اتجاه في المسجد، في العمل، في بيته، في كل محيطه، لا يراه أحد إلا ويبتسم له، ارتقى صبري من معاون نيابة إلى وكيل نيابة، استقر وضعه بعض الشيء، فقرر أن يشترى شقه أوسع في عمارته نفسها التي يقطن فيها، وكانت تلك الشقة هي المواجهة لشقة "سمر" التي لم تسعها الفرحة عندما علمت أن من سيكون جارها هو صبري، والتي ساعدت أم صبري في نقل أثاثهم وأصبح لقاؤها بصبري كثيرا، كما أصبح حبه في قلبها كبيرا وأصبحت تأخذ الدرس لديه بوجود أمه وأختيه، انقلب حال سمر من النقيض إلى النقيض، حتى أصبحت مختلفة جدا عما كانت عليه، كل ذلك فعله حبها لله ثم حب صبري، أرادت أن تكون مثالية مثله حتى تليق بحبه. في بداية الأمر، كان يعتقد أن شعور الحب يكون لله وأيضا للبشر كمحبة بينهم، لكن لم يعرف الفرق بين شعور الحب لله وللبشر بعضهم بعضا والمحبة لهم، وبين الحب والعشق بين الرجل والمرأة.

تتعلق سمر بصبري حد الجنون والذي يقابله صبري باللامبالاة واللاشعور، يتساءل كثيرا:

"لمَ لا أستطيع أن أبادلها الحب مثلما هي تفعل، لمَ لا أستطيع الشعور بذلك الحب الذي يصفه جميع الناس أنه أرقى وأجمل شعور، ومتى سأشعر به مثل باقي البشر، يقول شادي: إن الرجال يستطيعوا أن يشعروا بالحب عند سن البلوغ، وربما فترة المراهقة والشباب. حدثني أيضا عن كيفية تبادل الحب بين الرجل والمرأة، وذلك ما أراه يصدر من سمر، حدثني أيضا عن إن لم يتبادل الطرفان الحب، أي إن كان ذلك الشعور من طرف واحد، كيف يكون شعور الطرف الذي يحب، سيكون الحزن والتعاسة، وذلك لا أريده لسمر؛ حيث إنها تفعل شيئا جميلًا كالحب فأبادلها بشيء سيء كاللاشعور، مسكينة سمر، ليتها لم تحبني أو ليتني أبادلها ذلك الشعور ولكن.. ذلك سيغضب الله، الحب أيضا يصبح فتنة، فقد حدد الله الحب بين البشر يكون بالزواج والإشهار، لا في الخفاء، وأظن أنني إن أحببت فسأتزوج، ولكن كيف وأنا لا أعرف إلى الآن كيفية التعامل مع النساء.. رحماك ربي"

*****

تدخل الأم على صبري فتجده يقرأ القرآن قبل أن يخلد إلى النوم، تداعب رأسه وتجلس جواره فيبتسم قائلا:

-هل أنتِ سعيدة يا أمي وهل ينقصك شيء؟

-أتعلم، قبل أن تولد قد عانيت كثيرا من أهل أبيك وأبيك والفقر، ومنذ رأيتك نسيت كل المعاناة، آه يا ولدي، أنت سر سعادتي منذ ولادتك وأنت تحاول إرضائي وإسعادي، منذ أن كنت رضيعا، وكان يحدث شيء يحزنني كنت أنت تبتسم في وجهي دون سبب، وكأنك تحاول أن تجعلني أبتسم، وبالفعل كنت بابتسامتك أنسى كل شيء يحزنني وإلى الآن، شغلك الشاغل هو إسعادي كأنك ولدت لأجل ذلك.

-نعم أماه، أنا هنا لأجلك ولأجل أن أشعر بكل تلك المشاعر بينكم.

-كيف؟

-لا شيء يا أمي، كل ما في الأمر أنني هنا حقيقة لأجلك.

تمد يدها إلى وجنتيه قائلة:

-دائما ما أقول إنك دعوتي الصادقة إلى الله، وأنك أيضا رضا الله عني.

يقبل يدها مبتسما فتكمل:

-والآن قل لي، أرى الحب في عيني سمر، تلك السيدة التي انقلب حالها كليا.. ما رأيك بها؟

-سمر؟ لا أعرف يا أمي ولكن أشعر أنها كأخواتي.

-أنا أعلم ذلك، وربما يأتي الحب بعد الزواج، هي لا تفارقنا الآن تساعدني وتبر بي وبأبيك أكثر من أخواتك، وفي غيابك تظل تنظر للساعة حتى مجيئك، وعندما تراك تطير فرحا كأنها طفلة. ولكن الأهم هنا، هل ستقبل الزواج من سيدة تزوجت قبلا؟

-عن أي زواج تتحدثين أمي أنا لا أفكر في الزواج ولا أيضا في سمر. أما عن مبدأ أن أتزوج امرأة سبق لها الزواج قبلا فذلك ليس بالأهمية، ولكن أنا حاليا لا أفكر في الزواج.

-متى ستفكر إذن؟ الأمور الآن تغيرت، أصبحنا نملك المال، وحالنا متيسر، فلمَ لا تتزوج؟

-أنسيتِ أن مازالت لدينا آنستان يجب أن تتزوجا. أزوجهما أولا ثم أتزوج أنا، واتركي موضوع زواجي حاليا، وقولي لي كيف حال والدي؟

-والدك ينتظرك أن تمر عليه قبل أن تنام.

-إذن هيا نراه وأتحدث معه قليلا، وأود منكم الاهتمام به جيدا حتى لا يشعر بالوحدة.

تطلق ضحكة قصيرة قائلة:

-هههه أكثر من ذلك؟ نحن نهتم به أكثر من أنفسنا.. هيا يا ولدي.

يخرجان معا لرؤية الذي لا يفارق غرفته.

يدخلان غرفة الذي قابله بابتسامة لطيفة على الرغم من الشحوب الذي على وجه قائلا:

-اقتربا.

اقتربا منه، فجلس صبري جواره على اليسار، أما الأم فجلست على يمينه الناحية الأخرى، أمسك صبري يده وقبلها في حنو قائلا:

-آسف أبي، عندما عدت أردت أن أصلي وأقرأ بعض القرآن أولا قبل أن آتيك.

مازال يبتسم قائلا:

-نعم بني، الصلاة والقرآن أهم، فأنت الولد الصالح الذي سيدعو لي، أردت أن أقول لك الآن إنني أحبك كثيرا، ولا أخاف على أمك وأخواتك بعد موتي، لأنني سأتركهم مع رجل، ولكن للتذكير، إن أخذتك الحياة بعيدا عنهم فلا تنسهم.. أمك، تلك المرأة التي تحملتني كثيرا ووقفت بجانبي في كل ابتلاءات الدنيا، الحزن والسعادة، كانت لي نعمت الزوجة والأم والسند بعد الله، أنا أحببتها كثيرا.

ينظر إلى الأم في حب مبتسما وهو في ضعف شديد مكملا:

-وعندما أعود إلى الله سيكون طلبي أن يجمعني بها في الجنة.. أيضا أخواتك أنت ستصبح أباهم بعدي.

في استغراب من الأم وصبري قائلين في نفسٍ واحد

-ماذا تقول؟

يبتسم قائلا:

-بعد عشر سنوات معاناة من المرض، أظن قد آن لي الآن أن أستريح، لقد أزِف الوقت، أردت فقط أن تكون آخر وجوه أراها وأن أقول أحبكم.

يرفع إصبعه ناطقا الشهادتين ثم..

يغمض جفنا يونس وتتوقف دقات قلبه في ذهول من الأم وصبري اللذان لم يدركا إلى الآن أن الأب قد.. مات.

*****

يضع صبري يده برفق على قلب والده، فلم يجد نبضًا، تصرخ الأم في فزع؛ فرجل عمرها قد رحل، ينظر لها صبري في غضب صارخا "أماه، هذا اعتراض، قريبا سنكون معه، ذلك وضع مؤقت أرجوكِ" يقولها صبري غير مقتنع بما يقول على الرغم من أنه يعرف أن ذلك صحيح، ولكن أحشاءه كانت تتقطع رغما عنه، فقد رحل والده الحبيب.

في نحيب وعويل تقول "لا أستطيع"، يدخل أخواته البنات ويبدءون الصراخ عندما يرون أن أباهم جثة، وثم تأتي الطرقات على الباب، يفتح صبري فيجد سمر التي تسأل ماذا حدث فيخبرها، فتبدأ هي الأخرى البكاء، يدخلون إلى حجرة الوالد الميت فيتحدث إليهم صبري في أسى قائلا:

"إن والدنا قد رحل، والله باقٍ حيّ لا يموت، نمجده كل التمجيد حتى مماتنا، واعلموا أنه قريبا سيجمعنا به، كلها مسألة وقت فقط، هو فراقه فقط صعب، ولكن هنا الوقت يمر سريعا وسنلحق به إلى الجنة إن أراد الله، ولكن علينا فقط أن ندعوا له أن يكون من أهل الجنة، وفي قرب من الله فوالدنا كان رجلًا صالحًا" يحتضنوه جميعا باكين.

أخرجهن جميعا، ثم أخبر سمر أن تبقى معهن، ثم خرج وأتى بعد فترة وجد أن سمر وأمه جهزا كل شيء للتغسيل، أغلق الباب وقام بتغسيل أبيه وتكفينه ماعدا وجهه، بعدما أتم التغسيل جلس بجواره يبكي، في ذلك الوقت وجد روفائيل ظهر لأول مرة عندما رآه صبري زاد بكاؤه، ظلت ملامح روفائيل جامدة في حين يسأله صبري:

-لِمَ لمْ تقل لي أن أبي سيموت اليوم؟

-هل عندما كنت ملاك كنت تعلم ميعاد موت أحد من البشر؟ أنت تعلم أننا ملائكة توزيع الأرزاق ولا دخل لنا بالموت، لم أكن أعلم، وحتى إن علمتُ فليس مصرحًا لي أن أقول لك شيئا، أنت تعلم.

-أنت صديقي.

-تلك المحسوبيات كما تقولون عليها عند البشر فقط أنت أيضا تعلم، ثم أنت كيف تبكي على رجل ينتقل بجوار الله كما قلت لوالدتك، ذلك اعتراض!

-أنت لا تفهم، ذلك ليس اعتراضًا، ذلك شعور بالحزن، مثلا كأنهم سيحرمونك من وجودك في السماء كيف سيكون شعورك؟

-أنسيت أننا كما قلت إن هناك أمورًا لا نشعر بها لأنها لا تحدث فكيف أحرم من السماء.

نظر إليه صبري نظرة وكأنما يقول أنه مادام ليس ببشري، فلن يفهم ما يقول أو يشعر به البشر، صبري أيضا لم يكن يفهم معنى الألم والحزن الشديد إلى أن أصبح بشرا وارتبط روحيا بأرواحهم وشعر بالفقدان على الرغم من أنه يعرف أنه مجرد انتقال، ولكن.. الفراق.

*****

تمر الأيام قاتمة، والحزن يعم البيت كأنه ليل مظلم مستمر، حتى صبري الذي كان راضٍ بقضاء الله، ولكنه كان يفتقد أباه، فوجهه مازال عابثا يفكر أن البشر يعانون كثيرا من تلك المشاعر مثل الألم، ذلك أسوأ شعور مر به، لم يعلم سابقا أن بعض المشاعر تترك أثرًا سيئا جدا.

"الفقد" من المشاعر التي شاهدها تحدث للبشر عندما كان ملاكًا، ولم يكن يفهم لمَ إن فقد الرجل ابنه يحزن، وإن فقدت الفتاة أباها تحزن وتبكي بكاءً شديدًا، ولمَ الفقد يحزن إن كان البشر يعلمون أن من يفقدونه سيذهب ليقابل

الله، ولم يكن يعرف أن الشعور مؤلم حتى مر به مع فقدان أبيه الذي اعتاد وجوده ورؤيته كل يوم، غير ذلك، تلك العاطفة والصلة القوية التي تربطهم صبري يعلم أن ذلك ما يؤلم وليس انتقال الشخص إلى الله. يظل صبري يستغفر الله على ذلك الحزن وذلك الشعور ولكنه رغما عنه.

يواسي أمه وأخواته ويبرر لهم أن ذلك وضع مؤقت يحثهم على الصبر والإيمان بالله والدعوة لوالدهم، وأنه هنا بجوارهم وأصبح أباهم وأخاهم.

يفكر صبري أن ذلك ابتلاء أيضا إجابة عن سؤاله..

"لمَ يحب الله البشر على الرغم من أنهم يعصونه.. لأنهم يعانون"

*****

على مقهى في وسط البلد، يجلس صبري منتظرا شادي الذي اتقف معه على أن يقابله بعد العمل، يطلب قهوته فتأتيه، يقوم برفع القدح إلى أنفه يغمض عينه ويقوم بشم رائحة القهوة، يفتح عينيه مبتسما ويقوم باحتسائها فيبتسم مرة أخرى، وكأنه يشعر بطعم الحياة في قدح القهوة الصغير، يحدث نفسه أن في تلك الحياة أمورًا كثيرة جدًّا ممتعة منها القهوة وأيض..

يقطع حديثه علو صوتٌ لشباب يتحدثون، فازداد صوت النقاش وحدته مع اعتراض أحدهم قائلا:

-إن كان هناك إله، لم لا يظهر نفسه عندما نقوم بسبه؟ لم لا يدافع عن نفسه وينتقم؟ إن كان هناك إله لكم لمَ يجعلكم تقتلون بعضكم بعضًا باسم الدين وتعدد المذاهب؟

يرد الآخر مستنكرا:

-هل تظن نفسك شيئًا حتى يظهر لك الله عندما تقوم بسبه؟ إن لم يظهر لأنبيائه العظماء الذين عبدوه حق عبادة، وهم رسله سيظهر لك أنت؟ إن لم يظهر للفرعون الذي طغى وعلا وفسد في الأرض وقال أنا ربكم الأعلى. سيظهر لك أنت؟ من أنت؟ ثم إن الله خيّرنا في مصائرنا، وقتلنا بعضنا بعضًا إنما هو اختيارنا، عقولنا المحدودة الجاهلة والجشعة تختار القبح، أنت الآن تكرهني لأني مؤمن ولست مؤيدك، أنت اخترت ذلك وليس الإله.

يتابع صبري النقاش دون أن يتدخل، يشعر بالغضب حينا وبالشفقة عليهم حينا، الأول الجاهل الذي لا يعرف شيئا وفي سريرته مقتنع أنه يعلم كل شيء فيتحدث بثقة مطلقة، والآخر المؤمن وفي داخله قليل من الشك فيما قاله صديقه، ولكن إيمانه يمنعه من مجرد الشك.

يفكر صبرائيل أن لا أحد يعرف الحقيقة، المؤمنون هنا إيمانهم كما وجدوا عليه آباءهم، ينازعهم بعض الشك لأنهم لم يروا الله عيانا.

والكافرون به يحاولون أن يسقطوهم معهم خائفون أن يكون وجود الله حقيقة فيندموا، أما أنا الكائن الوحيد على الأرض الذي يعرف الحقيقة، ولكني

لا أستطيع أن أتحدث فأجعلهم مؤمنون، لا أستطيع أن أقول أن الله حقيقة وهو جل جلاله لا أستطيع وصفه، وأنه على الرغم من شكوكهم إلا أنهم يحبهم ويشفق عليهم. ومن جهة أخرى أجد أن البشر يستحقون الشفقة.

الله خلق الإنسان غير أي كائن آخر فنقاط ضعفه هي نفسها نقاط قوته، وما يرونه جميلا ومغريًا هو نفسه القبيح، ولكنهم لا يستطيعون التمييز.

-ما طعم هذا المشروب؟

يجد صوت روفائيل في عقله فيضحك قائلا:

-آهٍ يا روفائيل من متع حياة البشر، القهوة

-رأيت أنك نسيت تكملة تناولها عندما انتبهت لحديث الشابين.

-نعم، هو نقاش لإظهار القوة فقط، فكلاهما يشكان في صحة كلامهما، ولكن هنا أيضا أسئلة تطرح ولا أجد لها تفسيرًا على الرغم من أني أعلم حقيقة وجود الله.

-ما هي؟

-مثلا، لمَ الله يخفي نفسه عن عباده الذين يحبونه، ولم لا ينتقم من الذين لا يحبونه؟ لمَ يترك البشر في حيرة؟

-تلك حكمة لا يعلمها إلا الله، حتى نحن المقربون منه لا نعلم ما حكمة ذلك

-أتعلم؟ أنا أشفق على البشر كثيرا، هم تعساء ويائسون، وأيضا خائفون.

-أما أنا فأشفق عليك أنت كثيرا.

-لمَ؟

-البشر لا يعلمون حقيقة وجود الله إلا قليلًا منهم من يتبع عقله ولهم العذر، أما أنت تعلم حقيقة وجوده ولكنك تتساءل مثلهم!

-يا صديقي أنا لست مثلهم، أنا أعلم حقيقة وجوده، ولكن أتساءل عن الحكمة من القواعد التي وضعها لحياة البشر فجعلت حياتهم بائسة، ترى كل شيء بسيطًا، ولكن هو صعب عليهم، أعطاهم الدنيا بكل جمالها ومتعتها، ولكن حرم عليهم كل شيء.

-ذلك هو المغزى، وإلا لمَ أعطاهم في النهاية الاختيار بين الجنة والنار؟

-هل تذكر عندما اعترضنا وقلنا لله أن الإنسان سيفسد في الأرض ويسفك الدماء وجل جلاله قال إنه يعلم الذي لا نعلمه؟

-نعم.

-إلى الآن، البشر يفسدون في الأرض ويسفكون دماء بعضهم بعضا.. حين أتأمل جيدا أحوال البشر، أرى ضعفهم أكثر من طغيانهم، ومما يظهرون هم فعلا خائفون وتائهون. أتعلم يا روفائيل لمَ البشر خائفون؟

-لمَ؟

-لأن ما بعد الموت مجهول بالنسبة لهم.

-لم أنت شارد هكذا؟

أتاه صوت شادي فانتبه إليه مبتسما قائلا:

-أنت تأخرت فكنت أفكر فقط.

ظلا يتحدثان، ولكن عقل صبري مازال مشتتا حول تلك الأفكار والأسئلة التي إلى الآن لا إجابة لها.

*****

يمشي صبري في الشارع ليلا بلا وجهة يفكر في كل شيء مضى، وكم من الأشياء التي أجابت عن سؤاله الذي كان سبب نزوله إلى الأرض "لمَ يحب الله البشر كثيرا على الرغم من أنهم يعصونه" أيضا يفكر في كم المشاعر التي جربها والتي كلما تذكر إحساسها يشعر كأنه يشعر بها في اللحظة نفسها والبقية تأتي..

انتبه إلى أنه مشى كثيرا حتى ابتعد عن مدينته إلى منطقة الزمالك الهادئة، يمر بجوار بعض الفلل الصغيرة إلى أن يصل إلى نادي القضاة المطل على النيل أمام فيلا فيجلس بجوارها تحت شجرة ليفكر كعادته، يمر بعض الوقت ثم يصل لأذنه صوت موسيقي هادئة فتبدأ العلو، إنه صوت الكمان، أغمض عينيه ليشعر بجمال الموسيقى أكثر ويلفحه بعض النسيم الهادئ، يتذكر أن تلك المقطوعة التي تعزف هي موسيقى أغنية كلمات لـماجدة الرومي، والتي كان يحب الاستماع إليها، يفكر أن تلك الموسيقى الجميلة هي من صنع البشر، فماذا لو استمعوا للموسيقى التي تصدر من الجنة، التي أعدها لهم الله، أعتقد أن لا مقارنة، فقد قال لهم الله تعالى "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"، علو الموسيقى قطَع تفكيره، فانتبه ليسمع مرة أخرى، فتح عينيه ولأول مرة يشعر بفضول من الذي يعزف؟ يقف من مكانه وينظر خلفه فيجد الفيلا ذات السور القصير والحديقة الصغيرة المظلمة ومنها إلى النافذة القريبة منه، والتي تصدر منها الموسيقى، يجدها مضاءة ولكن لا أحد هناك.

على تلك الموسيقى التي يحبها وذلك العزف القريب يبدأ الشعور بالجمال، وفي حركات لا إرادية ترتفع يداه وتنزل وكأنه مايسترو هو المتحكم في الموسيقى مغمضًا عينيه وكأنه حر. وكأنه صعد إلى السماء مرة أخرى.

من خلفه يقترب ظل من النافذة حاملا الكمان، فإذ بها امرأة جميلة أُسدل شعرها الأسود المجعد على قميصها، تقترب حتى تظهر ناظرة من النافذة إلى حيث صبري الواقف ملوحا بيده في الهواء، تفكر من هذا المجنون الذي يفعل ذلك مع موسيقاها، توقفت عن العزف لكنه لم يتوقف عن التلويح، فلم ينتبه أن الموسيقى توقفت، ابتسمت ثم أكملت عزفها حتى النهاية وهي تنظر إليه فلا ترى وجهه، تعزف وتفكر كيف هو وجه ذلك الرجل؟ ولم لا ينظر تجاه النافذة، تستمر بالعزف حتى تنتهي، تظل واضعة الكمان على كتفها لعله ينظر، وها هو يلتف فينظر إلى النافذة فيجدها تبتسم لرؤية وجهه، فيبتسم رغما عنه، في تلك اللحظة، كان من ينظر إليها قلبه، شعر بشيء غريب لا يعلم ما هو، ولكنه شعور غريب ورائع فيظل ينظر إليها إلى عينيها التي اختطفته، تشعر هي الأخرى بالارتباك، فتبدأ العزف بمقطوعتها المفضلة، الحرب والسلام لبيتهوفن.

يقف متسمرا، يستمع ولكن تلك المرة لا يستطيع إغماض جفنيه ليشعر بالجمال، لأن الجمال كان متمثلا أمامه شكلا وصوتا، كانت تلك اللحظة من أسعد اللحظات التي مرت عليه من وقت نزوله إلى الأرض، لحظة تتمثل فيها

السعادة والتي أتت بعد حزن كبير على والده، أبدلته هي بموسيقاها ووجها المضيء.

بعد أن انتهت من العزف ظلت تقف بالنافذة، وهو جامد في مكانه ينظر إليها إلى أن رن هاتفه الصغير وكانت المتحدثة والدته قلقة عليه، كان عليه أن يرحل من أمامها ليعود إلى بيته بسبب قلق أمه، فكان الوقت منتصف الليل، بعد إنهاء المكالمة نظر إلى النافذة وبدأ يتمشى وهي تنظر إليه حتى اختفى من أمامها، بعد رحيله، ظلت واقفة بالنافذة فهي الأخرى شعرت بشعور جديد في فؤادها.

*****

(على الرغم من محاولاتي الفاشلة
أن أرسم وجهك..
أستسلم أخيرًا و أرسمك قمرًا.)

على فراشه يفكر صبري فيما حدث وذلك الشعور الجديد ما هو، يهتدي إلى أنه ربما يكون ذلك هو الحب، فقد قال له شادي قبلا إنه شعور لا نستطيع وصفه، ولكنك تود لو أنك تظل واقفا أمام من تحب، وربما يتوقف الزمن، نعم، هو أراد ذلك لولا هاتفته والدته، ثم إنه يفكر أن يذهب مرة أخرى غدا قائلا: ليت يمر الوقت وغدا بسرعة حتى أذهب إليها"، لأول مرة يتمنى لو يمر الوقت سريعا على الرغم من أنه لأول مرة يراها. لا يستطيع النوم إلا أن قام ونزل لصلاة الفجر، في الصلاة يحاول أن يركز ولكن عيناها لا تفارق تفكيره.. غضب كثيرا من نفسه، وبعد الانتهاء، شعر أن صلاته ربما تكون غير مقبولة، فقام بإعادتها، ثم جلس وقرأ من سور القرآن ثم ذهب إلى بيته. أيضا لم يستطع النوم حتى الصباح، فقام ليبدأ يومه المعتاد بالصلاة وتقبيل يدي والدته، ثم الذهاب إلى العمل والذي لم يستطع إتقانه كَقَبل، صورتها لا تفارقه، انتهى يومه ببطء فقام بمحادثة شادي وتقابلا في المقهى المعتاد، حكى له ما حدث، ربما يفهم منه ماذا يحدث له فكان رد فعل شادي أنه قام صارخا واااااا أخيرا، دخل الحب قلبك..

(أين المفر؟

ووجهك يسكن الأماكن والجهات)

في الساعة الحادية عشر كما الأمس، كان واقفا أمام نافذتها ينتظر أن تطل منها، مر بعض الوقت ولم ييأس إلى أن أطلت ممسكة الكمان، ابتسمت، ولكنه لم يبتسم بل ضحك فرحا ملوحًا بيده وكأنه طفل صغير. ضحكت هي الأخرى لرد فعله وقامت بالعزف.

ظل واقفا يستمع إلى عزفها، يبتسم لا إراديا، وقلبه يخفق حتى انتهى العزف واختفت هي، ظل واقفا، عيناه تأكلان النافذة بحثا عنها متسائلا أين ذهبت.. ووجدها أمامه واقفة ممسكة الكمان في يدها ترتدي فستانًا أسود قصيرًا، وشعرها مسدل على كتفيها، كانت تشبه قبسًا من النور، حينها شعر أن قلبه بين قدميه وضرباته ازدادت، حتى كاد يخرج من مكانه، لم يستطع أن ينظر إلى عينيها الجميلتين، فقد استحى، ابتسمت واقتربت منه قائلا:

-هل أعجبك عزف اليوم؟

ظل جامدا مكانه لا يستطيع الكلام، شعر أنه سيغيب عن الوعي عندما رفع عينيه إلى عينيها وظلت هي تنظر إليه ضاحكة قائلة:

-هل أنت أَبكَم؟ ولكن لا، رأيتك تتحدث في هاتفك بالأمس.

يفكر لمَ لا يستطيع الكلام؟ لمَ لسانه أصبح ثقيلًا جدا؟ ولمَ لا أستطيع النظر إلى عينيها.. يا إلهي ارحمني..

تتغير ملامحها وتشعر أنه لا يريد التحدث معها فتقول:

-آسفه، من الواضح أنني غير مرحب بي هنا حتى لا ترد على أسئلتي ظننت غير ذلك.. ربما أعجبتك الموسيقى لا اكثر!

يشعر أنه غبي تماما فلا يستطيع الكلام، ويود لو أنها تفهم ذلك، وكيف تفكر في كل ذلك؟ أود لو أنطق ولكن شيئًا ما يمنعني.. يظهر الحزن على وجهها فتستدير وتهم بالرحيل، يشعر وكأنها نهاية العالم. وأخيرا، ينطق في تأتأة:

-انتظظظري

-تقف مغمضة عينها وتبتسم ثم تعود لتلتفت إليه قائلة:

-نعم!

-أنا عندما رأيتك أمامي فقدت النطق وشعرت بثقل في لساني، آسف.

-لم؟

-لا أعلم.

تبتسم وتمد يدها لتصافحه:

- ضيّ

قالتها ولم يفهم، فمد يده بعد تردد قائلا:

-لم أفهم ماذا تعنين بـضيّ؟

أطلقت ضحكة اهتز لها قلبه الذي لا يحتمل فقالت:

-أنا اسمي ضيّ

كأنه تاه بفكره غارقا في جمال عينيها ووجهها المضيء قائلا:

-نعم، أنت ضي.

قال مرددا:

-أنت "الضي في عز العتمة"

اندهشت لما قال فأدرك، واندهش أيضا هو الآخر كيف تجرأ وقال ذلك، نفض كل شيء عن فكره فقال:

-أنا صبرائيل..

استدرك سريعا أنه أخطأ قائلا:

-أنا صبري.

-صبرائيل أم صبري؟

-معك أود أن أكون صبرائيل، فأنت خلقتِ لتكوني ملاكًا وقدر له الحياة في الأرض.

تستغرب من حديثه قائلة:

-أنا أعلم أن ذلك مدحًا ولكن لا أفهم ماذا تعني؟

-لا شيء.. أنا صبري، فقط صبري.

تزيح شعرها الأسود المسدل على وجهها الخمري فتظهر عيناها اللتان فتنا صبري، خفض نظره عنها مفكرا أنه واجه فتنًا كثيرة قبل ذلك، ولكن لم يقابل فتنة يريد أن يغوص فيها، يذنب فيها، كتلك الفتنة وفتنة جميلة كعينيها.

-هل أعجبتك الموسيقى؟

قاطعت تفكيره فقال:

-نعم، موسيقى أغنية كلمات والثانية مقطوعة الحرب والسلام لبيتهوفن.

-من الواضح أنك تعرف كثيرًا عن الموسيقى.

-نعم، أحبها وأستمع كثيرا إليها.

-دعنا نتشارك الموسيقى، أنا أعزف وأنت تستمع.

أومأ برأسه موافقا.

قامت بوضع الكمان على كتفها وعزفت موسيقى هادئة، وهي تنظر إليه وينظر إليها سارحا بفكرة أن ذلك الشعور الذي يحتويه الآن هو أجمل المشاعر على الإطلاق، فلا يستطيع وصفه وإنما الإحساس به، يود الآن أن يعود ملاكًا ويطير في السماء، ولكن إن عاد ملاكًا ربما لا يستطيع أن يستمتع بذلك الشعور، الآن سؤال جديد يلح عليه، لمَ حكم على الملائكة ألا تشعر وألا تحب؟ لمَ حكم عليها ألا تعيش الحب مع شريك؟ وربما يتزاوجون وينجبون، لم خلقوا للطاعة فقط؟ ربما لو خلقوا للطاعة ويملكون مشاعر لأصبحوا

أفضل من البشر، هنا أتى صوت روفائيل:

- لم دائما تنكر أن لدينا مشاعر؟ نحن نحب الله، لم تنكر هذا علينا؟

أجابه:

– آه يا روفائيل، لو جربت حب البشر للبشر، إنه شيء خاص لا تستطيع وصفه. نحن يا روفائيل محرومون.

– الآن أشعر أنك بشري خالص، فقد نسيت كون خلقك ملاكًا.

– لم أنسَ، وفي نهاية الأمر سأعود ملاكًا، ولكن جربت الحياتين والجنسين الملائكة والبشر، ولكن كونك ملاكًا لا تخطئ فلن تستطيع فهمي، هنا على الأرض حتى الخطيئة بها لذة غريبة. الخطيئة مغرية أكثر من الشيء الذي تستطيع أن تناله ويكون امتلاكك له طبيعيًّا، البشر آآآآ...

هنا أدرك صبري شيئًا ما، أن كل شيء في الأرض مغرٍ، والبشر ممنوعون منه فأصبح الممنوع مرغوبًا وله لذة خاصة، كالذي يقف على أعتاب الجنة وممنوع أن يدخلها. وهنا أيضا إجابة عن سؤاله: لمَ يحب الله البشر على الرغم من أنهم يعصونه. لأنه "صنع لهم الأرض جنة ولكنهم محرومون منها"

انتبه صبري لصوت ضي تقول:

-إلى أين انتهيت؟

-ماذا تقصدين؟

-أقصد أنك شردت وأريد أن أعرف بماذا تفكر؟

-أفكار كثيرة منها موسيقاكِ.

-وأنا؟

شعر بوخزة في قلبه، فاجأه سؤالها.. أسيقول لها الحقيقة أنه نعم يفكر فيها، وأنه لا يستطيع فهم الشعور الذي ينتابه بوجودها، أم يكذب قائلا لا منعا للإحراج، ربما الصواب لو قال الحقيقة في كل شيء، لمَ لا يقول: نعم أفكر فيكِ، حتى في وجودك، وإنني لم أستطيع النوم من الأمس، وكنت أنتظر الوقت يمضي لأمر أمام بيتك وأراكِ تطلين من نافذتك، ولكن ما لا توقعته هو رؤيتك أمامي ذلك أكثر مما كنت أطمع.

-هل أنت دائم الصمت والشرود هكذا؟

قالتها فانتبه قائلا:

-آسف لم أقصد، ولكن كنت أفكر في رد.. نعم، كنت أفكر فيكِ وأنت أمامي ولا أدري لماذا!

-وهل تشعر أن هناك شيئا يخترق قلبك ولا تدري ما هو؟

أنمت بالأمس جيدا أم ظللت تتقلب على وسادتك؟ هل انتظرت اليوم يمر سريعا وأنت تفكر ما الذي حدث بالأمس يجعلني أود أن أراه مرة أخرى على الرغم من أن كثيرين يحبون موسيقاي ويستمعون إليها؟

هنا فكر أنها تتحدث عن نفسها، ولكن ذلك ما حدث له أيضا، فرح كثيرا فذلك يعني أنها أيضا فكرت فيه وكانت تنتظره.

-حقيقة، أنا لم أجرب ذلك الشعور قبلا ولا أستطيع تفسيره.

-ألم تحب أحدًا من قبل؟!

-بلى، أحببت أمي وأبي وأخواتي وكل الناس.

ضحكت وهي تضع يدها على فمها في عذوبة قائلة:

-لا، لم أقصد ذلك الحب، قصدت الحب الآخر.

-تقصدين حب الزواج وهكذا؟

-ليس مشروطا بالزواج!

-خطأ، الله أمرنا بالزواج والحب لمن سنشاركه حياتنا وإن أحببت سأتزوجها.

- ولكن الزواج يقتل الحب، معظم من أعرفهم مات حبهم بزواجهم، لذلك إن أحببت رجلا فلن أتزوجه.

شعر بغصة من طريقة تفكيرها وآرائها، أو ربما لأنها لم تحب.

-ذلك مفهوم خاطئ يا سيدتي، الله خلق المحبة والإخلاص في قلوبنا، مثلا أبي ظل يحب أمي حتى انتقل إلى رحمة الله، وآخر كلمة رددها قبل الشهادتين هي أنه أحب أمي كثيرا.

-ذلك في الماضي أيام جدي وجدك.

صمت، فشعرت أنه انزعج من حديثها فسارعت بتغير الحديث قائلة في ارتباك وهي تضع الكمان على كتفها:

-ربما أعزف شيئا أود أن تسمعه.

ظل صامتا حتى بدأ العزف وهو ينظر إليها فراح في تفكير عميق وكأنها تنومه مغناطيسيًّا بموسيقاها.. وعينيها.

*****

يدق باب البيت، فتفتح الأم الباب لتجد أمامها سمر، تبتسم لها مرحبة بها:

-بنيتي أهلا بكِ.

-أهلا خالتي.

-كيف حالك؟ ولكن لمَ وجهك عابس هكذا؟

-لا شيء، أنا بخير، وأنتم وصبري كيف حالكم.

-نحن بخير.

-لي يومان لم أره.. خير؟

-لا أعلم أين يذهب بعد العشاء ويعود متأخرًا واليوم كان دائم الشرود.

-هل حدث شيء ما لا أعرفه؟

-لا أعلم يا بنيتي، ولكن هل ضِيقك لذلك السبب؟

انتبهت سمر إلى أن الأم تلمح لشيء..

-لا، أنا متعبة فقط، ولكن لي يومين آتي ولا أجد صبري، ولم يعطني الدرس فأردت أن أطمئن فقط.

-آه، الآن سيأتي ونعرف ماذا حدث فأظنه لن يتأخر لبعد منتصف الليل، وأنا سآتي لك بكوبين شاي نشرب سويا.

تمر الساعات إلى أن تأتي الثالثة صباحا وصبري لم يأتِ، بينما سمر يائسة، فهي تشعر بشيء غريب، والأم أيضا في خجل من سمر. تستأذن سمر للرحيل، فلم تجد الأم حديثًا آخر تقوله، فتستودعها، فترحل سمر تاركة الأم تتساءل عن تغير ابنها، فلم تعتده يتأخر كل ذلك الوقت خارج البيت!

وفي ناحية أخرى..

*****

(منذ أحببتُكَ..

وأصبح العالم صغيرًا

تحتوي كفتَ يدك.)

تمر الساعات وصبري وضي يتحدثان ويستمعان لموسيقاها.

ينظر إلى عينيها الجميلتين قائلا:

-ابتسامتك.. تمحي كل الحزن العالق بي.

تبتسم في خجل. وبينما ذلك يرن هاتفه كثيرا بين اتصال من صديقه شادي وأمه وأيضا سمر.. كان في كل مرة يرن الهاتف يقوم بإغلاق الصوت، فتنتبه ضيّ إلى ذلك قائلة:

-لمَ لا ترد على تلك الاتصالات، لربما تكون شيئًا مهمًا!

-لا، إنهم أهلي وصديقي.. أمي قلقة لأني لم أعتد التأخير كل ذلك خارج البيت.

-إذن حادثهم وأنا سأنتظر.

-لا، ليس الآن.. لا أريد أن يضيع وقتي معك، عندما أرحل سأحادثهم.

تبتسم له ولكنها تصر أن يهاتف والدته حتى تطمئن قائلة:

-هاتفها؛ فهي قلقة عليك.

-إن هاتفتها ستسأل أين أنا وأنا لا أحب أن أكذب عليها، فلا أود أن أقول أنني برفقة سيدة.

-لم؟ هل هذا أيضا خاطئ؟

-أمي لم تعتد أن أجالس نساءً إلا أخواتي وجارتنا التي تأخذ الدرس لديّ، والآن الساعة تعدت الثالثة صباحا، فماذا سأقول لها؟

-أليس لك أصدقاء نساء؟

-لا.

-كيف ذلك هههههه، أتريد أن تقول إنك لا تعرف أحدًا غير والدتك وأخواتك وجارتك؟

-وأنت.. ولكن هن شيء وأنت شيء آخر.

-كيف؟

-هن أخواتي، وأنت لا، أعرف هو شعور فقط إلى الآن.

ابتسمت لأنه لم يضعها في خانة أخواته، فشعوره مختلف، فقال لها:

-والآن ربما حان الوقت لأذهب، فالوقت مر معك كأنه ثوانٍ.

-هل سأراك غدا.

-إن أردتِ ذلك.

-طبعا أريد.

ثم استدركت:

-إن أردت أنت ذلك أيضا.

رد مبتسما:

-طبعا أريد.. على الرغم من أني الآن لا أريد الذهاب، ولكن الوقت تأخر كثيرا. سأذهب الآن وأنت ادخلي بيتك ونامي جيدا.

-لا أظن أنني سأنام جيدا، سأظل أفكر في غدٍ.

تضع الكمان على كتفها وتعزف موسيقى.. أغدا ألقاك، بينما يقول:

-أغدا ألقاك.. يا خوف فؤادي من غد.

تنتهي من العزف فيودعها وينتظر أن تدخل إلى بيتها، يراقبها حتى تختفي فيذهب ماشيا واضعا يده في جيوبه وناظرا إلى السماء مبتسما.

*****

يدخل البيت فيجد الأم في انتظاره غاضبة قائلة:

-أين كنت وماذا بك؟

يرد مبتسما:

-كنت أجلس مع فتاة تعرفت إليها ولم أنتبه إلى الوقت.

ترد مستنكرة:

-فتاة؟

-نعم، فتاة.. ولم أرد على هاتفك بسبب رد الفعل ذلك، فلم أكن سأستطيع أن أشرح لك أمامها.

-ومن تلك؟

-آه يا أماه فتاة.. خلق وجهها لنراه فنبتسم.

أخذ صبري يحكي لأمه وهو فرح، والأم في حيرة من أمره لشعورها من حديثه أن ابنها لأول مره يعشق، ويظهر ذلك، بينما سمر تعشقه وتنتظره وتشعر بتغيّره.

بعد انتهائه من الحديث ترد قائلة:

-وسمر؟

-ماذا بها سمر؟

-أنت تعلم أنها تحبك!

يرد بطريقة طفولية مبتسما:

-سمر مثل أخواتي، ولا أشعر بشيء تجاهها، ثم إنني أفكر في ضيّ وهي أيضا تفكر بي.

-اسمها ضيّ؟

-نعم أماه وهي كالضيّ، اااه يا أمي لو رأيتِ عينيها، كالسهام تخترق القلب.

-يا صغيري، أنت ليس لك معرفة بالنساء، وأخاف أن تلك الفتاة لا تستحقك، ولكن أنا أعرف سمر جيدا، وأعرف أنها ستكون لك كما كنت أنا لأبيك.

-أنتِ لم تعرفي ضي بعد لتحكمي عليها، وسيأتي وقت أعرفك إليها، والآن سأذهب لأنام حتى أستطيع الذهاب للعمل.

-ولكن ماذا ستقول لسمر، فهي تشعر أن شيئا ما يحدث!

-سأقول لها إنها أختي كما قلت لها سابقا.

قالها بينما يدخل غرفته لينام تاركا الأم في حيرتها.

*****

(كيف أُخبره
أني من فرطِ عشقه.. أكادُ أجن به.)

لم تنم سمر تلك الليلة فحدسها يؤكد لها أن شيئا ما يحدث مع صبري، تظل تتقلب يمينا ويسارا، يقول لها أسمر أنه ربما هناك أنثى أخرى.. تكرر "أنثى أخرى"؟ ولكنها تعدل عن رأيها؛ فهي تعرف صبري جيدا وتعلم أنه بعيد كل البعد عن الاختلاط بالنساء، مجرد الفكرة نفسها تحرق فؤادها، تنهض من سريرها والحزن يعلو وجهها، تذهب لتتوضأ، ثم تتجه إلى الصالة فتفرد سجادة الصلاة، وتقف عليها، تختنق كثيرا فتنظر إلى الأعلى قائلة: هل يرضيك ما أنا فيه يا الله؟ ولكن أنا راضية بكل ذلك، لأنك أعطيتني الصبر، ولأني لم أتغير لأجل صبري، أنا تغيرت لأني عرفتك، عرفت وشعرت أنك هنا، وراضية بكل ما تمنحني إياه من ألم وأيضا فرح، فلتغفر لي".

تصلي بخشوع حتى تنتهي وتسلم إلى اليمين وإلى اليسار، ثم ترفع يدها عاليا «اللهي اعذرني، إنني أطلب منك شيئًا بعد كل ما منحتني من عطايا، ولكن بعظمتك خلقتنا طامعين، وأنا أطمع في كرمك، اعطني قلب صبري ولن أطلب شيئًا آخر، خذ كل شيء واعطني فقط قلبه..» تنهمر الدموع على وجنتيها الجميلتين فتمسحها مبتسمة بقلب راضٍ ومتيقن أن الله لن يخذلها.

*****

(كلما ذكرتُ اسمكِ..

العالم يضيء)

تمر الأيام وصبري وضي يندمجان، في حين أن سمر تحترق، لم تعد ترى صبري كما من قبل، عقله أصبح مشوشًا عن كل شيء، الرجل الذي يجرب العشق لأول مرة يقتحمه بكل كيانه، لم يعد ينتبه لشيء، كل ما يجول بخاطره "ضيّ"، ذلك الكائن اللطيف الذي احتل قلبه أعظم احتلال، ضحكتها، عيناها، موسيقاها التي تأخذه إلى السماء وتهبط به إلى الأرض عند الانتهاء، لم يعد شيء كما كان، يعود صبري إلى بيته كل يوم بعد الفجر ليجد أمه نائمة ليصلي الفجر صباحا، لا يستطيع النوم كعادته ليذهب إلى عمله، يتثاءب ليأخذ استراحة في مكتبه وينام بعض الساعات تاركا عمله ويؤخر صلاته، أصبح شغله الشاغل رؤية "ضي"، ذلك الحمل الجميل الذي بات قلبه يحمله ولا يستطيع التحكم فيه. ذلك اليوم، يعود إلى بيته مجهدا فيجد أمه والتعنّت يعلو وجهها، الأم التي تشعر ان ابنها يمشي إلى طريق سيوجع فؤاده في نهايته، لا تدري لمَ تشعر بذلك على الرغم من رؤية ابنها في سعادة غامرة، يقترب منها في حنو قائلا:

-لم سيدتنا الجميلة وجهها عابس منذ أن أخبرتها عن ضيّ؟

-أنت تغيرت كثيرا يا ولدي ولم تعد كالسابق، لم تعد تهتم بشيء إلا برؤيتها، أصبحت تهمل بيتك وعملك.. خائفة عليك من النهاية، فاعلم يا ولدي أن البدايات دائما جميلة وأنت كما أعرفك لا تفطر قلب أحدٍ فأخاف أن ينفطر قلبك.

-قلبي سعيد يا أماه فضيّ جعلت لوجودي هنا معنى كبيرًا، هذا ما أردته، ذلك الشعور بالذات أحببته حتى أصبحت أدمنه.

-لم أفهم، ماذا تقصد بوجودك هنا؟ هنا أين؟

-لا عليكِ أماه قصدت في الحياة.. أعرف أنك خائفة عليّ وأعرف أنك تحبين سمر، ولكن ذلك ليس بيدي، أريدك أن ترضي بما أحب وأشعر حتى لا يكون هناك عائقا يؤرقني وأنا أفعل ما أحب ولا تحبه أمي.

تتنهد الأم واضعة كفيها على وجهه قائلة:

-أنت قطعة مني، وأحب أن أراك سعيدا، ولكن أنا أشعر أن هناك شيئا ما، وأن تلك السعادة لن تدوم، لذلك أود أن تأخذ حذرك وتتمهل في الانجراف بعاطفتك، فأنت لا ترى سواها في الحياة الآن.

-ذلك حقيقي يا أماه، لم أعد أرى شيئا، حتى إن ذلك الفؤاد أصبح يتألم من كثرة ما يحمله من عشق "أنا أتألم من السعادة".

تبتسم الأم في حنو، في حين يدق الباب فيفتح صبري ليجد أمامه سمر، فتبتسم له ابتسامة اشتياق، يبتسم بدوره مرحبا بها قائلا:

-أهلا سيدة سمر تفضلي.

تدخل مرتبكة فتقابلها الأم مبتسمة قائلة:

-ابنتي الجميلة افتقدتك اليوم.

- لا أعلم يا أماه نمت وكأنني في غيبوبة لي فترة لم أنم جيدا.

تقولها وتلتفت إلى صبري قائلة:

-لم أعد أرك هنا، هل أنت مشغول لتلك الدرجة؟

-نعم مشغول يا أختي الحبيبة، وأيضا أريد أن أزف إليك خبرا هامًّا.. فأخوكِ مغرم.

قالها فرحا كطفل ولم يهتم بما ستشعر، سمعتها كصوت رصاصة خرجت فمه لترتطم بقلبها الصغير.. ردت في خوف:

-أغرمت؟ من؟

-فتاة اسمها ضيّ، وأود لو تتعرفن عليها أنت وأخواتي وأمي.

تضع الأم وجهها بين يديها فتخفيه من الحزن على سمر، فهي امرأة مثلها، وتعلم بما تشعر الآن. في حين أن قلب سمر كجمرة تسيل الدموع على وجنتيها كأنها آبار انبثقت فجأة من جوف الأرض قائلة:

-أردت الاطمئنان عليكم، والآن سأذهب.

-توقفي.. لمَ تلك الدموع؟

في بكاء شديد وعدم قدرتها على التنفس تقول:

-لا شيء لا شيء. سأذهب الآن وآتي مرة أخرى.

تفتح الباب وتغلقه خلفها، يلتفت ليرى الأم أيضا تبكي، يذهب إليها مسرعا قائلا:

-لم أنتِ أيضا تبكين؟

تقول في حرقة:

-أنت ماذا؟ ألا تشعر أنك فطرت قلبها للتو!

-فطرت قلبها لماذا؟ فهي تعرف أنني لا أحبها.

تنظر إليه الأم في غيظ قائلة:

-لا أدري ما هذا التناقض الغريب؟ كيف يكون قلبك يحمل كل هذا الحب، وأيضا كل هذا الجمود؟ أنت بالنسبة لسمر. كضيّ بالنسبة لك، بماذا ستشعر لو أن ضيّ قالت لك أنا أحب رجلا آخر.

علا الاحمرار والغضب وجهه قائلا:

-أماه، لا تقولي ذلك، ضيّ تحبني مثلما أحبها وأنا لم أقصد أأأأن أأأ...

لم يتخيل الفكرة نفسها التي أغضبته كثيرا، فلم يستطع تكملة الكلام، فترك أمه متجها إلى غرفته وأغلق الباب في شدة خلفه.

*****

في المكان الذي يلتقيان فيه، تنتظر ضي وفي يدها الكمان صبري الذي لم يأتِ، تتمهل في الاتصال به، ولكنها تعود لتمسك هاتفها وتطلب رقمه الذي يعطيها أن الهاتف الذي تحاول الاتصال به مغلقا.

وفي سريره يحاول صبري جاهدا التمهل أو إلغاء فكرة أن يقابل ضي الليلة، ولكنه لا يستطيع، يقوم بارتداء ملابسه ويخرج يتمشى كعادته، وفي عقله أفكاره تترنح بين أن يذهب إليها أم لا، هل تحبه بالفعل، هل تنتظره الآن، فؤاده يؤكد له أنها تبادله شعوره نفسه، ولكن هل بقوة العشق نفسها التي تختلج فؤاده ثم يفكر في شعور سمر الآن التي لم ينتبه لحظة لعشقها له وما أن وُضع مكانها مثلما قالت الأم.. أفكار كثيرة تؤلمه ومشاعر كثيرة متداخلة، يشعر بها في آن واحد ليجد صوت روفائيل يقاطعه:

-ما الذي يؤرق صديقي النصف بشري.

على الرغم من حزنه يبتسم صبري قائلا:

-صديقي الملاك، تأتي دائما وأنا في أمس الحاجة إليك، آه كم أحبك.

-ذلك دليل أنني أشعر بك يا صديقي، فنحن أيضا نشعر.

-أيقنت أنك تشعر..

-ماذا يحدث معك؟

-أنا أتألم يا صديقي حتى في الفرح.. لمَ يحدث ذلك؟ لا أدري لمَ كل هذه التعقيدات في حين أن الأمر بسيط.

-قلت لي قبلا إننا لا نستطيع الحكم على ما يشعر به البشر وردود أفعالهم إلا لو كنت بشريًّا، تلك المشاعر التي تتبادلونها أنت وسمر وضي كأنها دائرة لن تستطيع إصلاحها إلا بظلم طرف.. واحدة منهم ستخسر وتظلم.

-ولكني لم أظلمها منذ البداية، أخبرتها أنها كأخواتي الفتيات.

-تلك فتنة يا صديقي، ولتفكر جيدا كيف ستنجو منها دون أن تظلم أو تُظلم.

-لا أستطيع التفكير، أنت لا تعرف ذلك الشعور الرائع الذي أشعر به، يا إلهي.. لا أستطيع أن أصف لك كيف أشعر بجوار ضي، والآن بت أعرف أن أيضا ذلك شعور سمر بجواري،

وخائف أن يكون شعور ضي تجاهي كشعوري أنا تجاه سمر، سوف أتألم كثيرا يا صديقي، أنا أحترق لمجرد التفكير فيه.

-ألا تلحظ شيئًا؟

-ما هو؟

-إنك تؤخر صلاتك وعباداتك.. ثم إنك لم تعد تذكر الله، لم تدخله في أمرك ولم تستخره في خيارك، أنسيته؟

نزل حديث روفائيل كالصاعقة على صبري، فجحظت عيناه وانتبه أن حديثه صحيح. وكأنه أفاق من صدمة قال:

-أنا نسيت الله!

انتهى صوت روفائيل بعد أن ذكّره بأمر الله الذي تغافل عنه صبرائيل.

*****

يمر يومان دون أن تظهر سمر، تقلق الأم عليها، فلا تستطيع الوصول إليها، بابها دائما مغلق وهاتفها أيضا، تقف على بابها وتضع يدها على الباب ولا ترفعها إلا حينما سمعت صوتها سائلة:

-من بالباب؟

فرحت الأم لسماع صوتها على الرغم من ضعفه فقالت:

-أنا أم صبري.

فتحت الباب فوجدتها هزيلة في ضعف، أمسكتها أم صبري وأدخلتها إلى غرفتها، وضعتها في فراشها قائلة:

-ماذا فعلت بنفسك بنيتي؟

-لا شيء أماه أنا فقط نائمة.

-لا، أنت هزيلة جدا ألم تأكلي؟

تقوم الأم بمهاتفة ابنتها لتأتيها بطعام من البيت، بعد لحظات وجدت صوت صبري من الخارج يستأذن للدخول، أذنت له فدخل ممسكا بيديه صينية من الأكل قائلا:

-اسمحي لي أماه أن تأكل من يدي.

ابتسمتا كلتاهما فقامت الأم وجلس صبري مكانها قائلا:

-هل تعلمين يا سمر أنني جائع جدا، وعندما علمت من أختي أن أمي تطلب لك أكلًا أتيت به لنأكل سويا.

ابتسمت سمر في ضعف قائلة:

-شكرًا لك، فتلك أجمل مرة سآكل فيها لأنها من يديك.

بدأ صبري بوضع الطعام في فمها الجميل قائلا:

-هل تعلمين مقدار معزتك عندي يا سمر؟

وقف فمها عن الأكل قائلة:

-نعم، أعرف، فحبك لي كأخواتك، وإن كان الله قدر لي ذلك، فلا اعتراض على حكمه. وأعرف أيضا أن هناك شيئًا بيني وبين الله ولن يخذلني مهما حدث.

يندهش صبري من حديثها، هو بات يعرف كم الألم الذي تشعر به عندما وضع نفسه مكانها، قاطعت تفكيره ببكائها قائلة:

-أعتذر منك عن كل شيء، ولكني لا أملك سوى أن أحبك.. الله وضع محبتك هنا.

رفعت يدها إلى حيث يقبع قلبها قائلة:

-هنا يا صبري، عشقي لك ليس بيدي، إنه من الله ولا أظنه وضعه هنا هباءً.. أظنه قد وضعه لحكمة ما، لا أود أن أكون عبئا عليك، امضِ في طريقك حيث تريد ولا تبالي بي. صدقني أنا أحبك وأحب ما يفرحك، وإن كان وجودك معها يجعلك سعيدًا فأنا أيضا سعيدة.

ينظر لها كأنه لم يرها من قبل، ولا يستطيع الحديث، فقد أتى ليخفف عنها، ولكن هي من تحاول أن تخفف عنه وتجعله سعيدًا على الرغم من أَلَمِها، على الرغم من الألم الذي يأكلها، تثق في الله وترضى بحكمه.

وتلك أيضا إجابة عن سؤاله:

"لمَ يحب الله البشر على الرغم من أنهم يعصونه.. لأنهم يتألمون"

*****

(ولتعلم..

إنه يومي دونك رؤيتك وجهك.. حزين جدًا)

يذهب إلى عمله فيجد الساعي يخبره أن هناك سيدة تنتظره في مكتبه، يفكر من تكون تلك السيدة، يفتح الباب ليجد "ضي"، يقف فيخفق قلبه بشدة قائلا:

-ضي؟

ابتسمت في حرج قائلة:

-نعم، ضي.. قلقت عليك بشدة فلك ثلاثة أيام لم تأتِ، وهاتفك مغلق. خير؟ هل فعلت شيئًا ضايقك؟

دعاها للجلوس ثم جلس على مقعده ينظر إليها مرتبكا قائلا:

-لا، لم تفعلي شيئًا، أنا فقط كنت مشغولًا في العمل، فمنذ أن رأيتك لم أعد أهتم بشيء سواكِ، أهملت أهلي وعملي وحتى عبادتي.

-ولم تهمل كل ذلك؟ تستطيع أن توفّق بيننا، ولكن لا يمكنك أيضا أن تهملني.. فاليوم الذي لا تشرق فيه ابتسامتك يسقط من التاريخ.

رد مبتسما:

-لم أهملك، أنا فقط أردت أن أرتّب بعض الأمور وكنت سآتيك اليوم.

-إذن سأتركك الآن وسأنتظرك ليلا في مكاننا، حتى المكان يشتاق لك.

ابتسم من حديثها قائلا:

-حسنا، سآتي الليلة، وليكن معك الكمان فقد اشتقت له أيضا.

-وصاحبة الكمان؟

ابتسم مرتبكا فقال:

-أنت تعلمين جيدا أنني اشتقت إليك كثيرا.

فرحت وقامت من مكانها لتخرج من الباب في حين وقفت والتفت إليه قائلة:

-اشتقت إليك كشوق أرض قاحلة انقطع عنها المطر سنوات.

قالتها وتركته في فرحة عارمة تختلج صدره، فيحدث أن تختلف أنت وروحك، أتبقى معك أم تذهب معها؟

*****

(في ظل الحرب المشتعلة

بين عقلي وقلبي أود خيانتهما والهروب إليك)

-خفت ألا أراك مرة أخرى!

قالتها ضي وهي تجري نحوه وتحتضنه، شعر بجسدها، بشعرها الذي غزا وجهه ورائحتها التي حركت كل جسده، احتضنها بشدة ولم يبالِ، ففي تلك الخطيئة لذة، ظلا متعانقين في صمت حتى قطعت ذلك الصمت قائلة:

-ماذا سيحدث لو.. عانقتُكَ شهرًا وقبلتُكَ دهرًا؟

مال على أذنها قائلا في همس:

-أحبك..

خرجت من حضنه مبتسمة قائلة:

-حقًّا؟

-نعم يا حبيبتي، جدا، أحبك وأود الزواج منك.

ابتعدت قليلا عنه كأنها سمعت شيئًا لا يعجبها قائلة:

-زواج؟ لمَ وكيف نتزوج؟

اندهش من ردة فعلها فقد ظن أنها ستطير فرحا!

-نتزوج على سنة الله ورسوله.

ردت مستنكرة: سنة الله ورسوله، من الله ومن رسوله؟

جحظت عيناه، لا يصدق ما تقول فقالت:

-لا وجود لتلك الأمور، لا وجود للإله أو الرسل أو الأديان، نحن ديننا العشق والموسيقى. تأتي الآن معي إلى غرفتي، ونمارس ديننا دون توقف، أنا راغبة فيك وأعلم أنك أيضا ترغب فيّ.

يقف صبري فاغرا فاهه، انتبه أنها صمتت فقال:

-ما هذا؟ ما الذي قلتهِ للتو؟

-ماذا؟ ألم تعلم أنني ابنة رئيس رابطة الملحدين هنا؟

أنا ملحدة وغير مؤمنة بإلهكم، ذلك لأنه ليس له وجود، ولا أؤمن بالزواج وتلك الروابط.

وجد التعنّت والفخر في حديثها وكأنها متأكدة من عدم وجود الله.

-الله موجود.

-اثبت بدليل مادي، هل رأيته؟

-نعم.

ردت باستنكار:

-رأيته؟

لا يستطيع أن يشرح لها شيئًا غير مصرح له بذلك، ولكن كيف يقنعها، كيف يتحدث مع عقل متيقن ومتشبث برأيه هكذا؟

-اهدئي! لمَ أنت غاضبة إلى هذا الحد؟

-لأنني منذ البداية رأيت أنك متدين وأنا ملحدة ابنة ملحد، علمت أن يوما ما سنصطدم في هذا الأمر، لم أستطع أن أعترف لك في بداية الأمر لأنك ملكتني منذ الوهلة الأولى دون أن أدري.

-وهل ظننتِ أنني سأمرر الأمر هكذا عندما تتوطد علاقتنا ولا يستطيع أحدنا الابتعاد عن الآخر؟

-نعم، ظننت أن ذلك لن يؤثر على علاقتنا عندما يعشق أحدنا الآخر، وأظن الأمر لا يهم، اعبد أنت إلهك واتركني أعتقد ما أريد.

-أنتِ مخطئة، أنا موقن بوجود الله، وأنت على ضلال ويجب أن تعودي إلى صوابك.

-كيف تكون متيقنًا هكذا وليس هناك دليل مادي واحد على وجوده؟

-أنت دليل على وجوده، الموسيقى التي تعزفينها دليل على وجوده. كل شيء خلق بتلك الدقة دليل على وجوده.

-لم لا نظل كما نحن فتأتي للعيش معي كعاشقين، فكل منا يحتاج الآخر، لا يفكر أحدنا الآخر في دينه أو اعتقاده، في الأخير نعيش بدين الإنسانية.

رد بغضب قاطع:

-دين الإنسانية هو الإسلام، وإن لم تعودي لصوابك فسنفترق..

تركها صبري غاضبا دون أن يلتفت وراءه كعادته، فعلمت أنها لن تستطيع السيطرة عليه، وربما خسرته.

عاد صبري إلى بيته كسير القلب، آخر شيء كان يتوقعه أن يعشق امرأة لا تعترف بوجود الله في حين أنه الوحيد على الأرض في تلك اللحظة الذي يعلم بوجود الله بدليل مادي، "لمَ يحب الله البشر على الرغم من عدم اعتراف بعض منهم به؟"

تذكر صبري قول الله في سورة "طه"

"اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى"

على الرغم من كفر فرعون بوجود الله وتنصيب نفسه إلها، وقال "أنا ربكم الأعلى"، إلا أن الله كان مرفقا بفرعون فقال "فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى"

كيف يرفق بمن لا يعترفون بوجوده مثل فرعون وضي وأبيها وجميع الكافرين به، وعلى الرغم من ذلك يرزقهم ويبسط عليه بالنعم ويحبهم.

إن الله رحيم بهم.

على الرغم من عشقي لها، لكنها كسرت شيئًا في روحي تجاهها، لا أدري.

وهنا سؤال: أأكمل معها على الرغم من عدم اعترافها بالخالق أم..

لا لا لا، كيف أضع الله في تلك المقارنة، دون تفكير الله أولا.

يتخبط صبري في تفكيره كثيرا.. يرى أن ذلك أعظم ابتلاء مر به، لا يعرف كيف يتصرف، فقرر أن يغلق ذلك الموضوع وأن يبتعد.

*****

في اليوم التالي ترقى صبري إلى مستشار وزادت مسئولياته، أغرق نفسه في العمل والعبادة ومناجاة الله حتى لا يضعف كسائر البشر أمام أهوائهم وأنفسهم الأمارة بالسوء، قرر أن يتخطى كل ذلك. حتى تلقى من ضي اتصالا بأنها تريد رؤيته والحديث معه، وعلى عكس الله الغفور الرحيم لم يكن ليّنًا معها، بل حدثها بكل حدّة أنه لا يريد لقاءها أو معرفتها.

عاد إلى بيته فوجد أمه تنتظره كعادتها، وكانت قد رأته متغيرا لفترة، ظنت أنه ربما يمر ببعض الصعاب التي ستمر، ولكنها عندما تراه تشعر بوجعه، أحنت عليه قائلة:

-ماذا بك؟

-الألم بداخلي لا يطاق يا أماه..

-أعطني إياه أحمله بدلا عنك.

-لا حملك الله هما أبدا، على الرغم مما يحدث في العالم، ولكن أنت الصورة الجميلة للبشر ولحب الله لهم.

-أخبرني ماذا بك؟ لمَ تحمل كل هذا الألم. أهو بخصوص ضيّ؟

-نعم يا أماه يجب أن أبتعد عنها.

-لمَ؟ أليست هي اختيارك؟

-أسأت الاختيار؟

شعرت الأم ببعض من السعادة داخلها، فالآن قد عاد ابنها كما كان، لم ترد توبيخه بأنها حذرته من أن ضي ستكون مصدر تعاسة له، فيكفي ما به من ألم، أخذته في حضنها قائلة:

-الوقت كفيل بأن ينسيك يا ولدي، وهناك من هي تنتظرك وتحمل عنك كل أعبائك.

شعر أنها تلمح بحديثها عن سمر فرد قائلا:

-أماه أنا لا أريد شيئا الآن، كل ما أريده أن أظل بحضنك حتى لا أشعر بشيء.

ضمته إليها بشدة وكأنه طفلها الصغير.

*****

ضي التي ولدت وتربت في بيت يعمه الإلحاد والذي يتعارض مع عشقها، من منهما سيطغى على الثاني؟ عشقها لصبري أم اعتقادها؟

لا تستطيع مقاومة عشقها له، في الوقت نفسه لا تستطيع أن تؤمن بوجود إله لم تره، وحتى إن أظهرت أنها تؤمن به، كيف ستواجه رد فعل أبيها ومن حوله وهو رئيس رابطة الملحدين، ذهبت إليه في حزن قائلة:

-أبي، ماذا إن كنا مخطئين في اعتقادنا بعدم وجود إله؟ ماذا لو أنه يوجد إله بالفعل؟

اندهش من سؤال ابنته حتى ظن أن بها شك، ولكنه أراد أن يجاريها:

-وأين هو؟

-ربما موجود ولا نراه.

-ولمَ لا يظهر نفسه لكل الذين يعارضون وجوده؟

-لا أدري، ولكن كيف نحن نؤمن بوجود الملائكة والشياطين على الرغم من أننا لا نراهم وننكر وجود إله.

-بنيتي، هناك أجناس مثل الملائكة والشياطين ونحن لا نراهم لأن تكوينهم غير تكويننا، ولكن الأبحاث أظهرت وجودهم، ولكن ذلك الإله الذي يدّعون وجوده ليس هناك دليل على وجوده إلا كتبهم ورسلهم، نحن ديننا العلم وإلى الآن العلم لم يثبت وجوده بدليل مادي، سأسألك سؤالًا وأريد إجابه واضحة وليست تخمينات وربما.. "يقولون إن الله خالقنا وإنه السلام والرحيم، ولكن هل ما يجري في العالم من حروب يؤكد أن هناك رب يدعو إلى السلام؟ وأين العدل والرحمة في كل هذا الكم الهائل من القتلى في الحروب والمجاعات وغيرها؟ إن كان موجودًا لمَ يأخذ وضع المتفرج؟"

لم تدرِ بمَ ترد فكلام أبيها مقنع، لمَ يأخذ الله وضع المتفرج دون أن يفعل شيئًا؟ إن كان حقيقة موجود.

صمتت فرد قائلا:

-أظن أن صمتك ذلك هو الإجابة، ولكن لأول مرة أراكِ مترددة ماذا يحدث معك؟ هل هو بشأن ذلك الرجل الذي تقابلينه؟

-نعم، إنه متأكد من وجود إله، ولكنه لم يعطِني دليلًا على وجوده، هو كسائر المؤمنين بوجود إله.

-قد ربيتك على حرية الاعتقاد، إن كنت مقتنعة بوجود إله فآمني؛ لن أقف ضدك، وإن كنت مقتنعة بعدم وجوده وذلك الأكيد فتشبثي بما تقتنعين، فنحن لا نسير خلف القطيع.

-نعم، يا أبي لن أسير خلف القطيع.

*****

إبليس الذي يجلس على عرشه وحوله حاشيته يظهر له أسمر بابتسامة عريضة على وجهه القبيح فيعلم إبليس أن لديه أخبارًا تسره قائلا.

-كيف حال صبرائيل؟

يرد أسمر بابتسامته نفسها قائلا:

-يعشق بشرية ملحدة، ولا تعترف بوجود إله، هي ابنة رئيس رابطة الملحدين، غضب كثيرا عندما علم فتركها..

أكمل شيطان آخر قائلا:

-وفي خلوتها كانت مترددة في اعتقادها، وكادت تعتقد بوجود إله لولا أن تحدثت إلى والدها فأقنعها فعدلت عن رأيها.

-وصبرائيل؟

-في حيرة من أمره يعشقها كثيرا، وحسبما رأيت أن ذلك العشق يتملكه كليا فربما يغلب عليه الطابع البشري هنا.

-لا أظن ذلك، حتى وإن طغى عليه الطابع البشري في أي أمر، فلن يغلبه في إيمانه بالله، ولكن إن زاد عشقه لها، ربما أود أن يزيد عشقه في قلبها وتبقى في حيرة بين اعتقادها وحبه وأن تراوده في أفكاره كثيرا.. الأمر الآن بين يدي الفتاة.

*****

يرن هاتف صبري مرارًا وتكرارًا، فيجد المتصل سمر وأخواته، قلقَ فقام بالرد وجد صوت سمر المرتجف وصوت أخواته البنات بجوارها، فتخبره أنهن في المستشفى، فقد سقطت والدته مغشيا عليها، وقمن بنقلها إلى المستشفى في حين أنهن يحاولن الاتصال به فلا يستجيب، وكما سقطت والدته سقط قلبه بين قدميه، فقام برمي الأوراق من يده وقام مهرولا إلى المستشفى، وعند وصوله أخبره الطبيب أن أمه أصيبت بهبوط حاد في الدورة الدموية مما أحدث خللا في أجهزة جسدها، وقاموا بإدخالها العناية المركزة، لا يدري أيّة مصيبة هذه ولكن ما كان يخرج من فمه هو "يا الله، إلا أمي، فهي من تعينني على الدنيا، يا الله!"

يحتضن أخواته وسمر في حين يخرج الطبيب، فيخبره أن الأم تريد مقابلته بمفرده، يدخل مهرولا وعيناه تسيل بالدموع في حين تقابله بابتسامة قائلة:

-خائفة أن أتركك هنا بين هؤلاء البشر يا ملاكي.

يقبل يدها قائلا:

-لن تتركيني بإذن الله، سنظل سويا إلى أن أذهب إلى الله قبلك، فأنتِ من يعينني على هذه الدنيا بعد الله.

-ألا تحب أن أذهب إلى من أرسلك لي؟ منذ أن كنت في رحمي وأنا أشعر بك، وعندما ولدت ورأيت وجهك الذي يشع نورا، حتى وأنت نائم كنت أرى نورا، ولكن أخبرني هل أنت ما شعرت به دوما؟

تردد صبري فغير مصرح له أن يفشي عن كينونته ولكنه وجد نفسه يقول:

-أنا من تظنين..

قالها وانفجر باكيا، ابتسمت قائلة:

-كنت أعرف أن الله يحبني ويرعاني، ولكن الآن تأكدت من ذلك، فخصّ فؤادي بأني حملت بملاك.

-لا أستطيع أن أشرح لك..

-لا تشرح، الله سيخبرني كل شيء عندما أذهب إليه، ولكن الآن أود أن أحمده وأشكر فضله الذي خصني به بعد عناء وصبر كبير، كنت أدعوه بعين باكية في جوف الليل، فاستجاب دعوتي، أنت استجابته. أود أن أقول لك قد اعتدت حياة البشر، ولكن لا تنسَ أنك ملاك، يجب أن تكون هكذا فلا تخطئ. حياتنا مليئة بالصعاب والبؤس، ولكن برحمة الله ننجوا من كل محنة وابتلاء، وتذكر أن السعادة هنا قليلة.

ابتسمت وهي تنظر إلى جواره قائلة:

-والآن أرى ملاكًا يقف بجوارك مبتسما.

انتفض صبري في هيجان قائلا:

-روفائيل هل هذا أنت؟ هل هذا أنت؟

رد صوت روفائيل في عقله قائلا:

-لست أنا بل ملك الموت.

"السعادة هنا قليلة"

كان هذا آخر ما تبقى من صوت أمه، جالس في غرفته يتذكر عندما كان في رحمها ويشعر بحزنها وفرحها، وكان ذلك أول شعور له، الشعور بها، ثم بعد ولادته مباشرة عندما خرج ورأى ابتسامتها، فابتسم لها، وكان ذلك أول شعور له على الأرض الابتسام لها، في حزنها عندما كان يبتسم لها فتنسى حزنها وتبتسم وتكلمه كأنه يفهم، ظل عطاؤها له ومساندته وحبها الغامر له معينا طوال حياته في الأرض، فعرف أن الله أعطاه كثيرًا من المحن والابتلاءات، ولكن في المقابل أعطاه نعما كثيرة، كان أولها أمه، والآن الابتلاء العظيم هو زوال نعمته الكبرى، ماذا سيفعل بعدها؟ فالله قال للبشر عن الأم "ماتت التي كنا نكرمك من أجلها" فهل تلك القاعدة ستطبق عليه؟ ربما لأنه الآن بات من البشر.

-لقد خالفت شرطًا من شروط نزولك الأرض.

قالها روفائيل عندما ظهر له بجواره، انفجر صبري باكيا كأنه طفل صغير أضاع أمه قائلا في أسى:

-تلك أمي يا روفائيل؟ كيف حالها في السماء؟

-أفضل من حالك هنا، أنت تعلم أنها كانت امرأة صالحة جدا، والله يحبها كثيرا، وكان يعتني بها هنا، فما بالك بجواره.

-ألا أستطيع رؤيتها؟

-ستراها عندما تكمل تجربتك، ثم تعود إلينا جميعا إلى مكانك الطبيعي بيننا، فأظن أنك جربت كل المشاعر، ولكن أكثرها الحزن والألم ومن المؤكد أنك علمت لمَ يحب الله البشر على الرغم من أنهم يعصونه، لأن حياتهم أكثرها شقاء يا صديقي.

-نعم، علمت، مساكين هم.

-الرئيس يقرئك السلام ويبلغك ألا تحزن، فهي بخير وأفضل هنا.

يمسح صبري دموعه مبتسما قائلا:

-أعلم يا صديقي، ولكن فراقها مؤلم جدا، البشر يملكون الذكريات، إنها متعبة جدا، فأنا أتذكر وجهها وابتسامتها في كل مكان، العالم بائس بدونها.

-هذا الوقت سيمر بالتأكيد، فانهض وأكمل مسيرتك.

يبتسم له صبري في حين يختفي روفائيل.

*****

تمر الأيام ثقيلة في البيت الذي تركته السعادة ورحلت، لم يظل في البيت سوى صبري المنهك فارغُ القلب كبئرٍ جفت مياههُ منذ ألفَ سنة. وأخته الصغرى، وسمر التي لم تتركهم وكأنها أصبحت البديلة لأمهم.

يطرق الباب فتفح سمر لتجد أمامها ضيّ قائلة:

-هل صبري هنا؟

-من أنتِ؟

-أنا ضي، أتيت لأراكم، فقد علمت من النيابة أن الأم قد توفيت.

-نعم، تفضلي.

-شكرا لك، هل أنت أخت صبري؟

-لا أنا جارتهم.

-سمر؟ لقد أخبرني عنك كثيرا، ولكن لم أعلم أنك بذلك الجمال!

-شكرا لك، نعم، فأنا في مقام أختهم.

-أنت في مقام كل شيء يا سمر.

قالها صبري وهو آتٍ من غرفته بعدما سمع صوتها:

على الرغم من الحزن، ولكن غمرت السعادة قلب سمر، فأحست أنه يخبرها بمكانتها على الرغم من كلامه المتضارب، في حين شعرت ضي بالغيرة الشديدة التي أشعلت قلبها نارا، ابتسمت قائلة:

- صبري، البقاء لله وحده.

-سبحان من له الدوام، ولكن كيف تنطقين بشيء غير موجود بالنسبة لك؟

-هذا ليس وقت الحديث في أمر كهذا، أتيت لأبقى بجوارك فقط.

-شكرا لك.

-كيف حالك يا حبيبي؟

قالتها ضي وهي تنظر إلى سمر لترى تعابير وجهها فوجدت ملامحها قد تغيرت وارتبكت قائلة:

-سآتيك بقدح قهوة.

رد صبري وهو يقوم من مكانه قائلا:

-لا، اجلسي هنا مع صديقتنا ضي وأنا سآتي بالقهوة.

ارتسمت على وجه سمر ابتسامة وقلبها مليء بالسعادة، هو يحاول ان يخبر ضي أنها أصبحت صديقته وأن سمر كل شيء، ولكن هل هذا صحيح؟ هل بدأ يشعر بها وينسى ضي؟ الابتسامة التي ارتسمت على وجه سمر جعلت ضي تحترق وتفكر "ماذا يفعل صبري؟ لمَ يتجاهلني؟ ولمَ يحاول أن يستفزني أمامها هكذا؟ هو قال إنها بمثابة أخته، ولكن الظاهر غير ذلك"، حينما غادرهم صبري ابتسمت ضي بدورها قائلة:

-صبري كان يود أن آتي إلى هنا لأتعرف إليكم، ولكن أتيت في وقت متأخر، فقد رحلت من كنت أود أن أتعرف عليها.

صمتت سمر برهة ثم قالت:

-نحن أيضا كنا ننتظرك وقد حدثنا صبري عنك كثيرا.

طال صمتهم، حتى قاطعه صبري قائلا:

-لو أنها هنا لكنتِ تذوقتِ أفضل قدح قهوة، أيضا سمر تصنع قهوة جيدة جدا، ولكن أردت أن تتعرفي إليها.

-القهوة من يدك أظنها أفضل.

وضع صبري القهوة أمامها ثم عاد ليجلس على الكرسي الذي بجوار سمر قائلا:

-هذا بالتأكيد ليس وقته، ولكن أود أن أقول لك إن المرة القادمة سترتشفين القهوة من يد سمر في بيتنا أنا وهي.

شعرت ضي بصقيع في جسدها، في حين أنهن ينظرن إليه وكل منهن بشعور مختلف، ضي التي تلجم فمها غير مستوعبة حديثه، وقلبها الذي أصبحت دقاته تجري كالقطار، سمر التي ضحكت قائلة:

-ماذا تقول؟ أأأأنت ماذا تقول؟

-أقول إنني الآن أراك بعيني أمي الجميلة.

ضي التي لا تدري ماذا تفعل سوى أن تبكي، ولكن كبرياءها يمنعها في ذلك الموقف أن تظهر بذلك الضعف، تحاول أن تتناول قدح القهوة فترتجف يدها فيقع على الطاولة فتنسكب منها القهوة في حين أنها ارتبكت قائلة:

-معذرة أود الحديث معك على انفراد.

-أنا وسمر واحد، من الممكن أن تتحدثي بما تريدين أمامها لأنني في الأخير سأخبرها بكل شيء.

شعرت بالغضب قائلة:

-صبري، أرجوك كفَّ عن إزعاجي، أعلم أنك مستاء مني لذلك تحاول استفزازي وإغضابي.

-لا أحاول ذلك، أنا أقول الحقيقة.

تقاطعه سمر قائلة:

-أنا سأذهب الآن وأترككم تتحدثون بحرية.

قال في حدة:

-اجلسي، لن تذهبي إلى أي مكان، إن أرادت الحديث فليكن أمامك.

جلست، في حين تستغرب كل ما يحدث، فذلك ليس صبري الذي يعشقها، تفكر ماذا حدث؟ ولماذا يحاول كسرها أمام تلك، ردت قائلة:

-كفى صبري، إنك تقتلني بتصرفاتك تلك، أرجوك!

تقوم ضي من مكانها وتجلس بجواره ممسكة يديه قائلة:

-امدد يَدكَ وعانق وجهي الصغير لتنتهي كل مخاوفي.

يسحب يده فتشعر بخيبة في أعماقها قائلة:

-لمَ تفعل ذلك؟ ألستُ أنا ضي التي قلت إنك تعشقها ولا تستطيع الاستغناء عنها؟ ألست أنا ضي حبيبتك؟

-أحب الله أكثر منك.

-لا مقارنة يا حبيبي، هو إلهك وأنا حبيبتك.

-نعم، هو إلهي ونهاني عن حب الكافرين به، وأنا أطعت لأني أحبه أكثر منك.

-إن كان ذلك ما سيبعدك عني، فأنا أؤمن به لأجلك.

رد مستنكرا:

-لأجلي؟ ماذا تقولين يا امرأة، الله أكبر من أن تتكبر عليه امرأة مثلك تظن أنها تعلم كل شيء وهي جاهلة بكل شيء.

-لن أتناقش معك في شيء أنا أريدك أنت فقط، وسأفعل أي شيء لأجل أن نبقى سويا.

-وأنا لا أريدك، أود فقط ألا تتعنتي وتحاولي الوصول إلى الحقيقة؛ ذلك خير لك.

يزداد بكاؤها مع رفضه لها وإنكارها أمام سمر فتقول:

-لن أتناقش معك الآن سأدعك لتهدأ وسنتحدث لاحقا.

تنظر إليه في حنوٍّ قائلة:

-أنا آسفة أن وجودي هنا غيَّر مسار ما أتيت لأجله وهو أن أواسيك.

تقوم متجهة تجاه الباب وهي في بكاء شديد، في حين تنظر إليه سمر فتحثه على اللحاق بها، ولكنه يأبى فيظل مكانه، تخرج آلاء أخته الصغرى من غرفتها على أصواتهم العالية فتنظر لها ضي ثم تقوم بفتح الباب، فتلحقها سمر قائلة:

-أنا آسفة لما حدث.

تنظر لها ضي نظرة استحقار ثم تغادر. تعود سمر إلى صبري لتحاول هي وآلاء أن يفهما ما يحدث فتجداه يقوم من مكانه فتقول سمر:

-لمَ فعلت ذلك؟

-ليس الآن يا سمر ولكن ذلك ما يجب أن يحدث.

يتركها متجها إلى غرفته فيغلقها خلفه.

*****

(تركتك خلفي..
كشارع مررت به
ولا أتذكر في أي الأحياء قد مررت)

تمر الأيام ثقيلة جدا على صبري بعد موت أمه ومعينه على الحياة، وألمه المستمر لاشتياقه لضي، لرائحتها وعينيها وموسيقاها، يعض يده، يزداد حنقه على حياة البشر، البشر الذين لطالما كان يتطلع إليهم من السماء مفكرا فيهم.

قالت له أخته إن وجود سمر في البيت غير لائق، وهما غير متزوجين، فكثير من جيرانهم يتحدثون بشأنهم فيجب أن يقرر إما أن يتزوجها وإما أن تلزم بيتها، ولكن أي بيت؟ فسمر أصبحت واحدة من البيت، وكانت الأم تحبها، حتى إنها أوصته بها، في حين أن الوقت أيضا غير ملائم ولكن بالفعل يجب أن يقرر.

هو قرر بالفعل عندما أتته ضي، كان وقتها قد قرر أن سمر خطيبته، سمر الوحيدة التي سترعاه لأنها تحبه حبا جما، هو يشعر بذلك، ربما حان الوقت لينسى بعض الأشياء المعلقة، نعم، هي سمر، ربما تكمن السعادة بين يديها.

*****

يجتمع صبري مع أخواته البنات ومعهم سمر ينتظرون في شغف ليعرفن لمَ أراد أن يجتمع بهن، ظل صامتًا للحظات لا يدري كيف يبدأ الحديث فتبدأ أخته الكبرى "حلا" قائلة:

-خير يا صبري لمَ جمعتنا على عجلٍ هكذا؟

-خير إن شاء الله، أعرف أن الوقت غير ملائم لهذا الحديث ولكني مضطر، أريد أن أخبركم أني أريد أن أتزوج "سمر".

ابتسمن وفرحن جميعهن، ولكن رد فعل سمر التي أحست بوخز في قلبها التي لم تسعها فرحتها، فخرجت كصدمة، لم تصدق ما تسمعه فكررت:

-ماذا قلت الآن، لم أفهم.

ضحك صبري ومعه أخواته، فقال لها مبتسما:

-أنتِ تعلمين أننا جميعا نحبك وأمنا أيضا كانت تحبك، ثم إني أريد أن أقضي بقية عمري معك و..

قاطعت كلامه قائلة:

-موافقة.

فرحن كثيرا، حتى صبري ظهرت على وجهه ابتسامه على الرغم من أنه يشعر بغصة تمرر عليه فرحته، نظر إلى أختها الكبرى ووجدها تبكي فرحة قائلة:

-كان يجب أن تفعل ذلك وقت أن كانت أمنا هنا بيننا، كانت ستفرح كثيرا.

قال في مرارة:

-أعلم ذلك، كان يجب أن أتزوج وهي معنا، ولكنني لم أتوقع أن تذهب إلى الله مبكرا هكذا.. أستغفر الله.

ترد أخته الوسطى قائلة:

-لا تحزن، أظنها ترانا الآن وفرحة بكم، ولكن قل لي متى العرس؟

-لا أعرف، فيجب أن نقرر أنا وسمر.

يظهر على وجه سمر الخجل حتى تحمر وجنتاها الجميلتان فأكمل حديثه.

-ربما لو أبكرنا بموعد العرس فسنخرج من حالة الحزن التي أحاطت بنا ومن ثم نتخلص من أقاويل الجيران.

توقفت سمر عن الابتسام قائلة:

-جيران؟

استدرك صبري قائلا:

-لا عليكم سنحدد موعد العرس ونخبركن، ولكن أظنه سيكون في القريب، أليس كذلك يا سمر؟

ردت مبتسمة: نعم.

تنظر سمر إليهم وهم فرحين بالخبر في حين أن تملكها الخوف، خوف من أن يكون صبري سيتزوجها فقط ليتخلص من أقاويل الجيران أو لأنه اعتاد وجودها في البيت.

*****

"سمر" التي تسجد إلى الله على سجادة الصلاة، بعد الانتهاء ترفع يديها باكية مبتسمة قائلة:

-كنت أعلم يا الله أنك ستستجيب لدعائي، كنت أعلم أنك لن تتركني وحيدة مثلما كنت طوال حياتي، ولكن لم أكن لأدعو لحصولي على شيء مثلما دعوتك أن يشعر بي صبري ويكون هو شريكي في تلك الحياة، تغيرت لأجلك بعدما علمت بوجودك من صبري، فلو لم أقابله لعشت عمري لا أعرف عنك شيئًا، وأنت تعلم ما مررت به من معاناة، وألهمتني الصبر على ما ذقته، والآن يا الله، أدعوك ليكون صبري شريك حياتي في الدنيا أعينه ويعينني على متاعب الحياة، ليكون هو استجابتك لدعواتي.

*****

(حبي القديم
الذي عتقتهُ في قلبي
فأصبحَ كالنبيذ
الآن..
ترتشفهُ امرأة أخرى)

أقاموا العرس على عجل في احتفال بسيط ضم أخوات صبري وأصدقاءه وبعض من عائلة سمر ثم.

أغلقت الغرفة لأول مرة على صبري وسمر التي كانت تشبه القمر المنير في ليلته ال14، كان صبري يشعر بفرحة غريبة على الرغم من غرابة الوضع، جلس بجوار عروسه وظل ينظر لها قائلا:

-أنتِ تشبهين القمر اليوم على الرغم من أنك كنت وما زلتِ جميلة، ولكن وجهك اليوم مختلف.

نظرت إليه بخجل والسعادة تختلجها قائلة:

أتعلم لماذا وجهي اليوم مختلف؟ لأنني تزوجت من أعشق وأرغب، لأني دعوت الله كثيرا أن تكون زوجي، فذلك الشيء الوحيد الذي تمنيته منذ أول يوم تحدثنا فيه منذ سنوات أتذكره؟

-نعم، أذكر.

-أنت أيضا اليوم وجهك مختلف فوجهك يشع.. وكأنه يشع نورا.

-نعم، لأنني ظننت أني لن أفرح، ولكن الغريب أنني اليوم فرح جدا، وأيضا لأول مرة أراك بعين المحب.

اتسعت ابتسامتها وفي حركة طفولية أمسكت يده قائلة:

-هل أحببتني؟ هل أحببتني يا صبري؟ ظننت أنك تزوجتني فقط حتى تتخلص من أحاديث الجيران!

استنكر قولها:

-لم أتزوج لأتخلص من أحاديث أحد، ولكن أظن أني لن أجد أفضل منك؟ لن أجد أحدًا يحبني مثلك، فقد صبرتِ سنوات راضية بأقل شيء، وهي أن تكوني بجواري، نعم، أطلت التفكير في الأمر، ولكن فكرت جيدا حتى وجدت أنني كأني لم أرك قبلا، ورأيتك فجأة بعين أخرى. وكأن الله يخبرني أنك من ستشاركينني بقية حياتي.

أمسك يدها ثم قبلها قائلا:

-اغفري لي إساءتي، اغفري لي صبر كل تلك السنوات.

*****

مرحلة الرجولة

تمر السنوات على صبري ليصل سن الأربعين، ولم يرزقه الله بذرية، يشعر أن ذلك الكون الفسيح إنما يضيق عليه شيئا فشيئا، فسمر تشتهي طفلا منه، طفلا يشبهه في كل شيء، يحاولان في الأمر، ولكنه لا يفلح، فصبري لا ينجب، يخيرها صبري أن تنفصل وتتزوج وتنجب، ولكنها لا تقبل، حتى إنها ترفض مناقشة الفكرة، تفضل أن تقضي حياتها مع الرجل الذي تعشق حتى ولو لم تنجب وحرمت من الشعور من الأمومة، فهي تشعر أن صبري أيضا ابنها.

يعيشان في سعادة وود، غير أنه ينقصهما طفل، لا تظهر سمر لصبري شيئا حتى لا تشعره بنقصه وضعفه، ولذلك يزداد حبها في قلبه.

من ناحية أخرى، يرتقي صبري في عمله فيصير قاضيًا معروفًا بأنه يحكم بالعدل ومحبوبا من جميع من بالعمل.

*****

وفتنة السلطة

في مكتبه يأتي إليه الساعي ليخبره أن سيادة الدكتور مجدي النقيب يود مقابلته، فيأذن له بالدخول مرحِّبًا به قائلا:

-سيادة القاضي، أهلا بك.

يبتسم القاضي سابقا له قائلا: ولدي العزيز.

بعد أن تذكر أشياء من الماضي عندما كان صبري طالبا لديه في كلية الحقوق، ذكره القاضي عندما أنهى سنته الدراسية الأخيرة أنه من حفّزه ليكمل مسيرته على الرغم من يأسه، أومأ صبري برأسه مؤيدا في حين قال القاضي:

-أظن أنك تتذكر ذلك المعروف.

-أنت كنت أستاذي ومازلت أكن لك محبة كبيرة في قلبي.

-وأنا هنا اليوم لأرى تلك المحبة وذلك المعروف يرد إليّ.

استغرب صبري من ذلك الحديث فقال:

-خيرا؟

-لدي زوج ابنتي قد حبس ظلما في قضية إتجار بالمخدرات، وقد علمت أنك من القضاة التي ستكون في محاكمته، أود أن تحكم له بالبراءة.

صمت صبري مندهشا من حديث القاضي فكيف يطلب ذلك منه، إن كان زوج ابنته حقا بريئا فسيظهر ذلك، فقال:

-إن كان بريئًا لم توصني عليه من المؤكد فسيخرج.

اقترب وجه القاضي من المكتب قائلا:

-سواء أكان بريئا أو لا، فأود أن تبرئه، فذلك زوج ابنتي، وحالتها سيئة لأنها تحبه، ثم أود أن تنقله إلى مكان أفضل، فلا يجوز أن يعامل زوج ابنتي كالمساجين.

استاء صبري من حديث القاضي فقال:

-سيدي، أنت تعلم، إنني أحكم بالعدل، إن كان مذنبًا فسينال عقابه، وإن كان بريئًا فسيحكم له بالبراءة، أنت كنت قاضيًا وتعلم أننا هنا لإقامة العدل، وتعلم أيضا أنني لا أحب المحسوبيات.

يضحك القاضي قائلا:

-لا تحب المحسوبيات؟ هل تظن أنه لولا أنني توسطت لك كنت ستتعين هنا؟ تذكر أنك ابن عامل ولولا وساطتي لما كنت هنا!

اتسعت عينا صبري حتى ظهر الغضب عليهما قائلا:

-ماذا تقول؟ ذلك ليس حقيقيًّا، نعم، أنا ابن عامل، ولكن تعينت لأني كنت الأول على دفعتي.

-ليس صحيحا، تذكر أنك حينها قلت لا أمل في الوظيفة، فقلت لك لا تيأس فتلك ستكون من نصيبك، ثم توسطت لك حتى تعينت، والآن حان رد الجميل.

قالها القاضي وهو يهم بالقيام من مكانه قائلا:

-أنتظر زوج ابنتي أن يخرج، افعل ذلك.

ظل صبري مكانه غير مصدقٍ ما حدث، وكيف يجلس مكانه وربما هذا مكان شخص آخر تعب أكثر منه، ولم يستطع الحصول عليه، ولكنه لم يعلم أنه أخذ ذلك المكان بواسطة ذلك القاضي والآن يقوم باستغلاله، ربما القاضي يكذب، ولكنه يتحدث بكل ثقة، ولم لا؟ في الحقيقة إنه كان فاقد الأمل في الوظيفة لأنه ابن عامل، والعالم تحكمه الوساطة، كيف يعرف الحقيقة إذن.

جلس صبري على كرسيه، وكأنه يجلس على شوك، هذا العبء الثقيل الذي إذا تأكد منه فسوف يترك وظيفته لا محالة، يضع رأسه المكبل بالأفكار بين يديه يخبئه، عله يفيق من ذلك الكابوس المسمى بالحياة.

يقوم من على مقعده متجها إلى الباب ليغادر.

*****

في قاعة المحكمة يتابع صبري القضية، وفي نفسه يتمنى لو أن المتهم برئ حتى ينزاح هذا العبء، يفكر ماذا سيفعل لو أن المتهم مذنب؟ أسيحكم بالعدل أم سيتخاذل ويدعه يفر من العقاب لأجل المحسوبيات ولأجل البقاء على وظيفته، ولكن لم يفكر في تلك الأمور إن كان قاضيًا يحكم بالعدل، ولم يكن يعلم أن الدكتور قد تدخل لأجل تعينه في المحكمة، أكثر من أربعين عاما في الحياة البشرية وصبري في صراع بين ما يريد وبين ما يجب أن يكون، كل الاختيارات معقدة وغير مكتملة، في حياته بين الطبيعة البشرية وروحه الملائكية، فأصبح في صراع دائم في الأخير، من منهم سيطغى؟ البشري المتمثل في صبري أم الملاك صبرائيل؟

*****

بعد الاضطلاع على القضية وبمعرفة أن زوج ابنة الدكتور مجدي النقيب مذنب وسيحكم عليه بالمؤبد للإتجار بالمخدرات، بات صبري في حيرة من أمره، إما الحكم على الجاني بالعدل فينال جزاءه، وإما أن يترك القضية لقاضٍ آخر يحكم. وحيرته بأن ذلك المنصب لم يكن يوما منصبه، خرج صبري يمشي كعادته عندما يريد أن يختلي بنفسه ليفكر في أمر ما، أخذته قدماه إلى فيلا ضي القديمة، شعر أن الحنين إليها يقتله، ظن أنه إن سمع موسيقاها سيصمت كل ذلك

الضجيج المزعج في رأسه، ظل أمام بيتها، علها تطل من نافذتها، ولكن فكر أن الزمن مرّ من هنا أيضا وتغيرت حال كل شيء، ربما تغير وجهها، وعلى الأغلب أنها تزوجت وأنجبت ونسيت صبري ذلك الذي نهرها وأغلظ عليها في القول والمشاعر آخر مرة، ربما لم تعد تتذكره، ينتظر صبري أمام الفيلا حتى يهلكه التعب فيمشي عائدا إلى بيته الخالي إلا من زوجته، جامد الوجه والملامح كما كان في السماء، يقابل زوجته بابتسامة دون أن ينبس ببنت شفة، يدخل فيتوضأ ويصلي ويستخير الله في أمره ثم يقوم ولا يستطيع النوم بجوار زوجته، يجلس على كرسي أمام سريره وزوجته نائمة أمامه في الغرفة المظلمة، يظل ينظر إليها ويتمنى لو أنها.. ضي.

*****

يوم الحكم، يتوجه القاضي صبري إلى المحكمة عازما على قراره، يدخل قاعة المحكمة، فيجد الحضور، وفي الصف الأمامي يجد الدكتور مجدي ينظر إليه بثبات مبتسما، تبدو ملامح صبري جامدة لا تنم عن أي شعور، تبدأ المحاكمة وفي النهاية يحكم صبرائيل أن المتهم مذنب ويحكم عليه بالمؤبد بثبوت الأدلة، يفاجأ الدكتور مجدي بالحكم غير المتوقع، وبعد صدور الحكم يستشيط غضبا موجها كلامه إلى القاضي صبري أن ذلك لن يمر مرور الكرام، يخرج صبري من قاعة المحكمة متوجها إلى مكتبه ويكتب استقالته من منصبه قاضيًا.

يستفيق صبري على صوت الدكتور قائلا: داء السكري لا يعالج، ولكنه يمشي على علاج طوال حياته. ينظر إليه الدكتور قائلا:

-ها هو الآن يستفيق، قم يا بطل، ليس بك شيء، السكر فقط ارتفع لديك فأحدث لك غيبوبة.

ينظر صبري حوله ليجد أخواته وسمر التي تبكي، ثم تبتسم لأنه استفاق.

يترك الدكتور الروشتة، ثم يغادر، فيجلس أخواته البنات متشحات بالسواد، يواسينه، وتخرج سمر مع الدكتور قائلا لها إن صبري أصيب بداء السكري، ربما بسبب كثرة الضغوط ويجب أن يرتاح، يغادر الدكتور ثم تعود سمر لتجد صبري لا يقوى على الحديث، فتقول إن الدكتور طلب أن يرتاح قليلا، يخرجن، الواحدة تلو الأخرى، فتخبره سمر أن يرتاح قليلا لحين عودتها بالطعام وتخرج وتغلق الباب خلفها.

يجلس وحيدا، منصتا لذلك الحزن الذي يسري في جسده كمجرى الدم في وريده، يشعر بتدفقه، وغليانه، نعم، الحزن يغلي كبركان بداخله، إن مرت نسمة هواء ستحوله إلى تمثال من كتلة حزن، يردد قائلا:

-لست ملاكًا أو بشرًا أنا أصبحت تمثالًا من حزن.

يرفع رأسه قائلا:

-لم يا الله أجهدتني بالمعاناة دون البشر.

يأتي صوت روفائيل في عقله:

-احمد لله كما يفعل البشر.

-أحمد الله كثيرا، ولكن لا أفهم لمَ يحدث كل هذا؟ لم أعد أحتمل!

-أظن الآن وجدت إجابات كثيرة عن أسئلتك.

-نعم يا صديقي، لمَ الله يحب البشر كثيرا على الرغم من أنهم يعصونه؟ طوال حياتهم يختبرهم الله بالابتلاءات في مشاعرهم فيحمدونه، وحتى الذين يكفرون به ينزل عليهم الابتلاءات فيصبرون، خلقهم ضعفاء لا يقوون على شيء. لهم أعداء كثر "الشيطان، النفس، والهوى" وإن استطاعوا أن يحاربوا الشيطان فإن النفس والهوى هما العدوان الأشداء.

ينظر إليه روفائيل في إشفاق على حاله في حين يقول صبري:

-روفائيل، افعل شيئًا أود العودة.

يصمت روفائيل قليلا ثم يقول:

-أنت تعلم يا صديقي أن لا عودة لك الآن ما دمت لم تمر بباقي المراحل.

-لا أريد أن أمر بها، أنت لا تعلم شعور الحزن، والألم يعتصرني، لا أستطيع التحمل، لا أستطيع المواصلة، والآن بتّ أعرف كل شيء أتيت

لأجله، علمت الأجوبة على سؤالي، وأيضا جربت كل المشاعر، لأجلي يا صديقي افعل شيئًا.

لا يجد إلا الصمت في رأسه، فظل صبري ينادي روفائيل حتى بكى قائلا:

-يا الله لم أعد أحتمل، أعدني إليك.

*****

"يود العودة، لا يستطيع تحمل حياة البشر المليئة بالمعاناة"

قالها روفائيل لرئيس الملائكة، فرد الرئيس قائلا:

-لا يستطيع العودة، إن لم يكمل جميع مراحل البشر، الله خلق كل جنس بمعايير مختلفة عن الجنس الآخر، صبرائيل ظل يفكر في حياة البشر، وظن أنه قادر أن يكون مثلهم ويعيش حياتهم، وعندما وهبه الله ما يريد لم يحتمل حتى نصف حياتهم، والآن يود العودة، مسكين.

-ولكن الله قدره بابتلاءات كثيرة في آن واحد وذلك كثير.

-قال الله تعالى في القرآن "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها" ابتلاءاته تلك التي لا يستطيع مواجهتها يواجهها كثير من البشر وأسوأ من ذلك.

-أعلم ولكن هو ملاك وليس نفسا بشرية!

-هو من أراد ذلك، على الرغم من معرفته أنه ملاك، وأن الله خلق كل جنس بقدر مخصص له، رحمنا الله من كل ذلك، فأنعم علينا بالقرب منه والطاعة والتجرد من الشهوات.

-هو أراد التجربة، وقد جرب ذلك وعرف الإجابة عن أسئلته التي كانت سبب شقائه، فلمَ لا يعود الآن؟

-لا يستطيع العودة الآن، ويجب أن يكمل مسيرته التي اختارها وكل ما نستطيع فعله، أن تكون أنت بجواره وتعينه، ويجب أن يعرف أن كما في حياة البشر ابتلاءات وحزن، هناك أيضا سعادة وفرح.

فليحمد الله.

*****

(النسيان هو اختباء مؤقت للذكريات)

تمر الأيام، ولا يستطيع صبري الخروج من غرفته، ينام كطفل رضيع يفتقد أمه، لا يستطيع مواجهة العالم دونها، يأكل اليأس من جسد حتى أصبح نحيلًا كعود البامبو، قد كره حياة البشر، ولا يفكر سوى أن يعود إلى حياته ملاكًا، يظل يتذكر القرب من الله، وحياته كملاك موزع للأرزاق عندما كان يرى حياة البشر من بعيد، تسقط دموعه كلما فكر في شيء، اشتياقه لأمه التي كانت تعينه على ابتلاءاته، تلك البشرية التي أحبها جدًّا والآن يفتقدها بمقدار حبه لها، يفكر الآن، عمره أربعون عاما، ولم يعد يستطيع المواصلة في تلك الحياة ومرور حياة البشر، يعيشون من السبعين إلى التسعين، فكيف سيكمل حياته هكذا؟ كلما فكر أنه سيظل في تلك الحياة لمدة أكثر من خمسين عاما، تقل أو تزيد يستاء ويبكي، كل ذلك حدث في أربعين عامًا، فماذا سيحدث في الباقي؟

يردد "يا إلهي ارحمني وردني إليك".

*****

في ركن على سطح بيته يفترش صبري الأرض ناظرا إلى السماء يراقبها، متمنيا العودة إليها، يفكر في روفائيل حتى يجد صوته في عقله قائلا:

-آسف يا صديقي تم رفض طلبك، أنت تعرف أن ذلك أمر إلهي.

يعتلي الحزن وجه صبري الذي كان يعرف الرد مسبقا، ولكنه كان آملا أن يتغير، ولكنه حقا أمر إلهي ونافذ، فرد قائلا:

-أعلم يا روفائيل، ولكن الحياة باتت ثقيلة، وأنا الآن غير قادر على المواصلة، وليس بيدي حيلة، وأظن أنني اكتفيت، فسأجلس فقط في انتظار أن تكتمل المدة حتى يردني الله إليه.

-ولكن يا صبري أ..

يقاطعه صبري في حدة:

-لا تقل صبري، أنا صبرائيل.

بعد فترة من الصمت يرد روفائيل:

- ولكن يا صبرائيل، أنت الآن في منتصف العمر، ومن المؤكد أن هناك اختبارات أخرى، فالبشر يظلون هكذا حتى يتوفاهم الله، وأنت يجب أن تكون أقوى منهم، وأكثر صبرا، فأنت ملاك.

-نعم، أنا أشعر الآن أنني بشر، الآن أشعر كما يشعرون، وأفكر كما يفكرون، وأتصرف مثلهم، وأيضا أخطئ مثلهم، لم أعد ملاكا يا روفائيل، أنا الآن منهم، وأتمنى أن أكون ملاكًا.

حديثه يقابله الصمت، الصمت فقط.

يظل صبري يردد في ضعف باكيا:

-روفائيل؟ أين أنت؟ ولمَ تركتني؟ قل لي إنني صبرائيل ولست بصبري. أنا صبرائيل.

صبري الذي كان قديما صبرائيل، الملاك الموكل بتوزيع الأرزاق الذي أغوته حياة البشر ومشاعرهم الفانية، صبرائيل الذي كان ينزوي في ركن في السماء ينظر إلى الأرض باشتياق معجبا بمشاعر البشر.

الآن يجلس وحيدا حزينا يائسا ومنزويًا في ركن على سطح منزله، ينظر إلى السماء متمنيا عودته إليها كصبرائيل.

يتبع في الجزء الثاني من الرواية.

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.